الفصل الثالث

مساجد لها الريادة

١ - المسجد الحرام

هو أول مسجد وُضِعَ فى الأرض لعبادة الله سبحانه، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ﴾(١).

وفى الصحيحين أنَّ أبا ذر سأل النبى ﷺ عن أول مسجد وُضِعَ على الأرض، قال النبى ﷺ: المسْجدُ الحَرام - قال أَبُو ذَر: ثم أىّ؟ قال: المسْجدُ الأَقْصَى. قال: كَمْ بَيْنَهُمَا؟ قال: أَرْبَعُونَ عَامًا. ثم جعل الأَرْضَ لك مسجداً، فحيثما أدْرَكَتْكَ الصَّلاَةُ فَصَلِّ فَإِنَّ الفَضلَ فيه.

قالت اليهود: إن بيت المقدس أفضل من الكعبة لكونه مهاجر الأنبياء، وفى الأرض المقدسة، فردَّ الله عليهم.

١ - بقوله - سبحانه -: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ﴾(٢).

نبه بكونه أولَ مُتَعَبَّد - بفتح الباء المشددة - على أنه أفضل من غيره.

٢ - وبقوله: ﴿فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ﴾(٣). وليس ذلك فى بيت المقدس.

(١) سورة آل عمران - الآية ٩٦.
(٢) سورة آل عمران - الآية ٩٦.
(٣) سورة آل عمران - من الآية ٩٧.

٣ ـ وبقوله: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾[1] أى: وليس ذلك فى بيت المقدس.

٤ ـ وبقوله: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾[2].

وليس ذلك فى بيت المقدس.

وقد سميت «بكّة» لازدحام الناس فى الطواف، يقال: بَكَّ القوم، أى: ازدحموا ـ وتُسَمَّى «مكّة» أم القرى ـ كذلك ـ قال تعالى: ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾[3]. والبلد الأمين، قال تعالى: ﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾[4].

وصفت بالأمين لأمان من دخلها: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾[5].

وهى البيت الحرام، قال تعالى: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ﴾[6].

ولقد كتب اللّه لمكة بعد بناء الكعبة المجد والخلود، فقد أصبحت مقصد الحجاج من لحظة أنْ أَذَّنَ إبراهيم بأمر ربه عندما أمره الله قائلا له: ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾[7].

ومن لحظتها والإنسانية تفد فى موكب مهيب من شتى بقاع الدنيا إلى هذه الرحاب الطاهرة، يؤدون مناسكهم، ويتبادلون المعلومات، ويشهدون منافع

---

(١) و (٢) سورة آل عمران ـ من الآية ٩٧.

(٣) سورة الأنعام ـ من الآية ٩٢.

(٤) سورة التين ـ الآية ٣.

(٥) سورة العنكبوت ـ من الآية ٦٧.

(٦) سورة المائدة ـ من الآية ٩٧.

(٧) سورة الحج ـ الآية ٢٧ وصدر الآية ٢٨.

لهم. وفى هذا الجو الطاهر والحرم الآمن لارَفَثَ ولا فُسوق ولا جدال، بل الكل فى جو كله صفاء وَأخُوَّة ومحبة. ذابت الفوارق، وغابت المناصب، وأصبح الشعار: نحن جميعًا إخْوَة، الأب آدم، والأم حواء، والأصل من تراب وكرم بنفخة روحية من رب العالمين.

وكانت مكة تقع فى أجدب بقعة فى الجزيرة العربية، ولكنها جذبت الإنسانية لوجود الكعبة فيها؛ ولذلك أصبحت مركزًا للحياة الدينية، كما أصبحت مركزًا للنشاط الاقتصادى والتجارى، وتدفقت على مكة الأموال من كافة الأرجاء، ففيها انفتاح عالمى، وليس فيها إغلاق، كذلك نهجت قريش نهجًا قويمًا، وكانت دار الندوة الواقعة على مقربة من الكعبة تشبه البرلمانات المعاصرة، كانت قريش تتشاور فيها فى مهام أمورها، وتعمل على تحقيق السلام فى أرجاء الجزيرة العربية وحفظ التوازن بين القبائل، ولم تقحم نفسها فى أى صراع، وقد اهتمت بسوق عكاظ الذى كان الجميع يتبادلون فيه ألوان الثقافة والنظم الاجتماعية، وفيه كان يظهر النوابغ من الشعراء والخطباء، وتَداوُل الآراء العلمية فى كل مجال.

فالكعبة على مر العصور كانت مركز إشعاع، حتى عندما جثمت الوثنية حولها كان الفكر يتوقد فى أذهان الحنفاء الذين رفضوا الوثنية وانتبذوها، واتجهوا بفكرهم يتأملون فى ملكوت السمـوات والأرض، ويذكرون قومهم بهذا.

وفى مكة جاء عن ابن عباس ـ رضى اللّه عنه ـ قال: «لما أهبط اللّه عز وجل آدم عليه السلام إلى الأرض رأى فيها سعة ولم يَرَ فيها أحَدًا غيره. قال: يارب، أمَا لأرضك هذه عامرٌ يُسَبِّحُكَ وَيُقَدِّسَ لك فيها غيرى؟ قال: سأجعل فيها من ذريتك من يسبح لى ويحمدنى ويقدس لى، وسأجعل فيها بيوتًا تُرْفَعُ بذكرى، ويُسَبِّحُ فيها خَلقى، وسأبنى لك فيها بيتًا أخصه بكرامتى، وأوثره على بيوت الأرض كلها، أضعه فى البقعة التى اخترتها لنفسى، فإنى اخترتُ مكانه يوم خَلَقْتُ السمـوات والأرضَ، ومن قبل ذلك كان بعينى ـ أى تحت رعايتى وحفظى ـ ولست أسكنه، وليس ينبغى أن أسكن البيوت، ولكن على

كرسى البهاء والكبرياء والجبروت، وليس ينبغى لأحد أن يعلم علمى، ولا يبلغ كنه شأنى، اجعله يا آدم لك ولمن بَعْدَكَ حَرَمًا آمنًا من كل ملك جبار، مهما خَوَّلته، وبطن مكة جوارى دون خلقى، فأنا الله ذُو[1] بكَّة، عُمَّارُهَا وزُوَّارُها وَفْدى وأضيافى. أعمره بأهل السمٰوات والأرض يأتونه شُعْثًا غُبْرًا، وعلى كُل ضَامرٍ يأتيه من كل فَجٍّ عميق، فمن قَصَدَهُ لا يريد غيرى فقد زَارَنى وضافنى، ووفد إلىَّ فَنَزَلَ بى، وحَقٌّ عَلَىَّ أن أُتْحِفَهُ بكرامتى، وفرض على الكريم أن يُكْرِمَ ضيفه، وأن يسعفه بحاجته، تعمره يا آدم مادُمْتَ حَيا، ثم تعمره بعدك الأُمَمُ والقرون والأنبياء من ولدك، أُمَّةٌ بعد أمة. ونَبِىٌّ بعد نبى، حتى ينتهى ذلك إلى نبى من ولدك، فهو خاتم الأنبياء، فأَجْعَلُهُ من عُمَّارِه ووكلائه، يكون أمينًا عليه مادام حيًا، فإذا انقلب إلىَّ وجدنى قد ذخرت له أفضل المنازل، أجعل اسمى فى ذلك البيت، وبجدده نبى من ولدك يكون قبل هذا النبى ـ وهو أبوه إبراهيم ـ أرفع له قواعده، وأقضى على يديه عمارته، وأنيط له سقايته ـ أى أعهد إليه ـ وأُرِيه حرمه رحلَّه ومواقفه، وأعلمه مناسكه ومشاعره، وأجعله أُمَّة قانتًا وحده، داعيًا إلى سبيلى، أجتبيه وأهديه إلى صراط مستقيم».

هذا، ولما أوصى الله بالإسلام إلى رسول الله ﷺ وبدأ الدعوة إلى أهل مكة، صدوه وآذوه حتى هاجر من مكة إلى المدينة، ولقد تعلق قلب المسلمين وعواطفهم بمكة وماحولها، حتى إن رسول الله ﷺ يوم أن هاجر من مكة إلى المدينة، عَبَّرَ عن مدى الألم الذى يعتمل فى نفسه بتلك النظرة الحانية الأخيرة التى ألقاها على مكة وهو على مشارفها بقلب واله وفؤاد حزين وقال: «والله إنِّى لأَخْرُجُ منْك وإنى لأَعْلَمُ أَنَّك أَحَبُّ بلاَد الله إلى الله، وأَكْرَمُهَا عَلَى الله، ولَوْلاَ أَنَّ قَوْمَك أَخْرجونى مِنْك ما خَرَجْتُ».

هذه الكلمات التى امتزجت بالدمع، واقترنت باللوعة والأسى، تُعبر عن مدى تعلق الرسول ﷺ بمكة وبيتها العتيق... إنها ملاعب الصبا، ومقر

(١) ذو: صاحب، وبكة: مكة.

الذكريات، وموطن الآباء، وأول وحى الله هبط عليه فى غارها العظيم. . والسيدة عائشة تقول: لولا الهجرة لسكنتُ مَكَّةَ، فإنى لم أر السماء بمكان أقرب إلى الأرض منها بمكة، ولم يطمئن قلبى ببلد قط ما اطمأن بمكة، ولم أر القمر بمكان أحسن منه بمكة.

إنها كلمات تعبر عن شوق لهذا الحرم الطاهر، والبيت الآمن، ومازال إلى اليوم، قلوب المسلمين يعتمل فيها الشوق، وفى نفوسهم الحنين لهذا البيت الذى دعانا لزيارته خليل الله إبراهيم عليه السلام، الذى رَفَعَ قواعده، وسَاعَدَهُ ولده إسماعيل. ولقد عاد المسلمون بقيادة رسول الله ﷺ وفتحوا مكة بلا حرب ولا إراقة دماء، وأَمَّنَ أهلها فى ظل دعوة السلام، هذا، وكان من عادة النبى ﷺ أن يقول عند دخوله مكة: «اللَّهُمَّ إن البَلَدَ بَلَدُكَ، والبيتَ بَيْتُكَ، جِئْتُكَ أَطْلُبُ رَحْمَتَكَ، وأَرُومُ[1] طَاعَتَكَ، مُتَّبِعًا لأَمْرِكَ، رَاضِيًا بقَدَرِكَ، مُبْلِّغًا لأَمْرِكَ. أَسْأَلُكَ مَسْأَلَةَ المُضْطَرِّ إليكَ، المشْفِقِ مِنْ عَذابِكَ أَنْ تَتَقَبَّلَنِى، وأَنْ تَتَجَاوَزَ عَنِّى بِرَحْمَتِكَ، وأَنْ تُدْخِلَنِى جَنَّتَكَ».

هذا، وقد ترك الرسولُ ﷺ مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ بمكة يُعَلِّمُ الناس ويفقههم فى الدين، ويبين لهم الحلال والحرام. كما كان عبد الله بن عباس ـ رضى الله عنهما ـ يجلس بفناء المسجد الحرام يفسر القرآن الكريم، ويرشد الناس إلى مكارم الأخلاق، ويفقههم فى أمور الدين، وشهد الحرم المكى حلقات علم قبل أن تُبنى المدارس، أو تُوضَع المناهج، أو يكون هناك تخطيط منهجى.

فالحلقات أقدم ما عرف الناس فى تلقى العلم، ولقد نبعت من المساجد، وأهمها المسجد الحرام، الذى هو الأول فى الوجود، ولقد تخرج فى حلقات العلم التى عُقدت فى المسجد الحرام بمكة ـ وعلى يد هؤلاء الصحابة الأجِلاَّء ـ كثيرٌ جِدًا من خِيرة العلماء، ومن أشهرهم: مجاهد بن جبير، وعطاء بن أبى رباح، وطاووس بن كيسان. واستمرت تلك المدرسة تخرج طبقة بعد طبقة، وقد ذاع صيتها، واشتهر أمرها، ووفد عليها الكثير من طلاب العلم وعشاق

(١) أَرُوم: أطلب وأبتغى.

المعرفة، وقد أخذ عنها الإمام الشافعى صاحب المذهب المشهور علْمَهُ الذى ملأ به طباق الأرض، وكان من أساتذته سفيان بن عُيَيْنَة، ومسلم بن خالد الزنجى.

إن الشافعى يُعَدُّ من أئمة الفقه وأصحاب الرأى، وقد ذاع صيته، واشتهر أمره، وهو الإمام أبو عبد اللّه محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع - ينتهى نسبه إلى عدنان - ويلتقى مع رسول الله ﷺ فى عبد مناف.، وكان مولده بغزة سنة ١٥٠ هـ، وهى السنة التى مات فيها الإمام أبو حنيفة، حتى قال بعض العلماء: وُلد إمامٌ ومَاتَ إمام، وبعد أن بلغ من العمر سنتين حملته أمه إلى مكة لينشأ بين قومه، وبدأ حياته العلمية بتعلم القرآن، فحفظه وهو ابن سبع سنين، ثم أقبل على اللغة العربية، ومعرفة أيام العرب، والشعر، فبرع فيها كلها، ثم أقبل على الحديث والفقه.

يقول ابن خَلِّكَان: «كان الشافعىُّ كثيرَ المناقب، جَمَّ المَفَاخِرِ، منقطع القرين، اجتمع فيه من العلوم بكتاب الله عز وجل وسُنة رسول الله ﷺ، وكلام الصحابة - رضى الله عنهم - وآثارهم، واختلاف أقاويل العلماء، وغير ذلك من معرفة كلام العرب، واللغة العربية، والشعر، حتى إن الأصمعى مع جلالة قدره فى هذا الشأن قرأ عليه أشعار الهُذَلِيِّين، وذلك مالم يجتمع فى غيره». هذا رأى رجل له قَدْرُهُ فى الحكم على قَدْرِ هذا العالم الجليل. أما أحمد بن حنبل فقد سأله ابنه عبد الله: أى رجل كان الشافعى، فإنى سمعتُك تكثر الدعاء له؟ فقال: يابنى، كان الشافعى كالعافية للبدن، وكالشمس للدنيا، هل لهذَيْن مِنْ خَلَفٍ أو عِوَض عنهما؟ وهذه شهادة إمام له وزنه فى المجال العلمى.

إننى قد سقت هذا ليتبين لنا أن مدرسة مكة - ومكانها الحرم الجامع - قد أنجبت علماء، وخَرَّجَتْ رجالا حملوا مشاعل الهداية ونور العلم والمعرفة إلى الناس أجمعين. وطاف الشافعى فى الأرض وساح فى رحابها يبز العلماء ويفوقهم، حتى انتهى به المطاف فى مصر، التى كانت مثوى لجسمانه الطاهر، وما زالت مدرسته للآن تشهد بطول الباع له، وتشهد الدنيا للمدرسة التى تخرج

فيها بالعلم والفضل، والامتياز الخلقى، والأدب الجم، ولا يتوافر ذلك فى أى مدرسة أخرى مهما كان أساتذتها والمناهج التى تدرس فيها.

٢ ـ المسجد النبوى

أول المساجد ـ بعد الحرم ـ الذى له الريادة فى نشر العلم هو الحرم النبوى. والمساجد ـ كما قدمنا ـ هى صومعة الناسك، ومدرسة الدارس، يعمرها الزهاد بالعبادة، والمتصوفون بالذكر، والعلماء بحلقات العلم والدرس، وتبادل الآراء حول المسائل الفقهية والأدبية والعلمية.

وفى المدينة التى يقول فيها رسول الله ﷺ: المدينةُ قُبَّةُ الإسْلاَمِ، ودَارُ الإيمانِ، وأَرْضُ الهِجْرَةِ، ومُبَوَّأ ـ أَىْ مكان ـ نُزول الحلال والحرام». هاجر إليها رسول الله ﷺ عندما اضطُهد فى مكة وحُوصِرَت الدعوة، وأُوذىَ الأتباع، وكانت تسمى ـ قبل الهجرة ـ «يثرب». يقول الحق سبحانه: ﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَـٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟﴾[1].

يقول نبى الإسلام، صلوات الله وسلامه عليه، فيما رواه أبو هريرة ـ رضى الله عنه ـ: «أُمِرْتُ بِقَرْيَةٍ تأكل القرَى يَقولُونَ يَثْرِبَ، وَهِىَ الْمدِينَةُ، تَنْفِى النَّاسَ كما يَنْفِى الكِيرُ خَبَثَ الحَدِيد».

ولما خَرَجَ رسول الله ﷺ مُهَاجِرًا قال: «اللَّهُمَّ إِنَّكَ قَدْ أَخْرَجْتَنِى مَنْ أَحَبِّ أَرْضِكَ إِلَىَّ فَأَنْزِلْنِى أَحَبَّ أَرْضٍ إِلَيْكَ». وَقد أراد الله لأهل المدينة خيرًا، فهاجر إليهم المصطفى ﷺ، وقبل الهجرة بعام أرسلَ إليهم السفير الأول فى الإسلام «مصعب بن عمير»، الشاب التقى الزاهد، العالم اللبيب الأريب، الفاهم لظروف البيئة، الموصول القلب بالله، فَنَشَرَ العلم، وبَلَّغَ رسالة رسول الله ﷺ إلى أهل المدينة الذين تقبلوا هدى الله بقبول حَسَن، فجزاهم اللّه خيرًا، واختار النبى ﷺ ديارهم؛ لتكون بعد هجرته مهبط ما تبقى من وحى الله، وإليها تُشَدُّ الرِّحَال تبركًا وزيارة، ومقر الخلفاء الراشدين، وعاصمة الإسلام.

---

(١) سورة الأحزاب ـ من الآية ١٣.

وقد أجمع المورخون على أن الرسول ﷺ وهو فى الطريق من مكة ـ وعلى بعد ميلين من المدينة، وعند قرية «قُبَاء» ـ بنى النبى ﷺ بها أول مسجد فى الإسلام، الذى يقول فيه الحق سبحانه: ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ﴾[1].

والرسول ﷺ هو أول من وَضَع حَجَرًا فى قبلته، ثم تبعه أبو بكر، فعمر، وكان النبى ﷺ بعد أن استقر به المقام فى المدينة يأتى مسجد «قباء» كل سبت راكبًا أو ماشيًا، ويصلى فيه ركعتين.

وبعد أن أسس رسول الله ﷺ مسجد قُبَاء وانتقل إلى المدينة أسس مسجده على مساحة من الأرض طولها ٣٥ مترًا، عرضها ٣٠ مترًا، فمساحة المسجد النبوى وقت البناء (١٠٥٠) ألف متر وخمسون، وكانت هذه القطعة قد بَرَكَتْ فيها ناقة رسول الله ﷺ، وكانت مربدًا لسهل وسهيل، غلامين يتيمين من الأنصار، وكانا فى حجر أسعد بن زرارة، فساوم الرسول ﷺ عليها، فقال أسعد: بل نهبها لك يا رسول الله، فأَبَى، وقد ابتاعها منهما بعشرة دنانير. وكان فى هذا المكان نخل وبعض قبور المشركين، فأمر بالنخيل فَقُطِعَ، وبقبور المشركين فنبشت، وبالخرب فَسُوِّيَتْ، ثم أخذ فى البناء، وكان الرسول ﷺ ينقل الحجارة بنفسه، ويشارك المؤمنين فى العمل والبناء، حتى قال الصحابة.

لَئِنْ قَعَدْنَا وَالنَّبِىُّ يَعْمَلُ لذَاكَ مِنَّا العَمَلُ الْمُضَلَّلُ

فارتجز الجميع ورددوا ـ ومعهم الحبيب المصطفى:

اللَّهُمْ لا عَيْشَ إِلاَّ عَيْشُ الآخِرَهْ فأغْفِرِ اللَّهُمَّ للأنْصَارِ وَالْمُهَاجِرَهْ

وبنى أساس المسجد بالحجارة، والجدار باللَّبِن ـ أى الطوب الأخضر ـ وجعل عُمُده جذوع النخل، وسقفه بالجريد، وطوال مدة البناء التى استغرقت سبعة

(١) سورة التوبة ـ من الآية ١٠٨.

أَشْهُرٍ قضاها النبى ﷺ فى ضيافة أبى أيوب الأنصارى. هذا، ولم يتخذ الرسول ﷺ منبرًا فى أول الأمر، بل كان يقف إلى جانب جذع من جذوع النخل المسقوف عليها المسجد، ثم صنع المنبر فيما بعد، وكان يتكون من درجتين ومقعد، وكان النبى ﷺ يجلس على الدرجة العليا (المقعد) ويضع قدميه على الدرجة الثانية، فلما تولى الخلافة أبو بكر الصديق جلس على الدرجة الثانية ووضع قدميه على الدرجة الأولى، ولما تولى عمر بن الخطاب كان يجلس على الدرجة الأولى ويضع قدميه على الأرض.

هذا وقد سُئل رسول الله ﷺ عن المسجد الذى أُسِّسَ على التقوى، فقال: هو مسجدى ـ أى مسجد المدينة ـ ذلك لأنه المسجد الجامع الذى خَرَّجَ الرجال الأبطال وعلم الدنيا بهديه، وبين جنباته ترددت الكلمات المشرقة المضيئة التى بهديها استهدى الناس، وأشرقت الأرض بنور العلم والمعرفة. فى هذا المسجد نزل الوحى من السماء يهدى للتى هى أقوم، وكذا أكثر آيات التشريع والأحداث التاريخية الهامة فى صدر الإسلام، وأحاديث رسول الله ﷺ التى كانت نبراسًا وضياءً أكثرها قيل فى المدينة، وأكابر الصحابة شاهدوا ـ بعد ماسمعوا ـ رسول الله ﷺ يعمل ويقول، والقرآن يقول: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ ﴾[1].

لهذا كانت مدرسة المدينة ـ ومقرها المسجد الجامع ـ أغزر علمًا وأبعد شهرة؛ ذلك لأن كثيرًا من الصحابة تخصص للحياة العلمية، وبعض أصحابه أضاف إلى العلم أن قام بدراسة وتعلم بعض اللغات الحية كالسريانية والعبرية، ومن هؤلاء زيد بن ثابت الذى كان ضليعًا فى فهم تعاليم الإسلام، حتى قال سليمان بن يسار: ما كان عمر ولا عثمان يقدمان على زيد بن ثابت أحدًا فى القضاء والفتوى والقراءة والفرائض، وكان ذا عقل فى الرياضيات. ولى قسم

(١) سورة الأحزاب ـ من الآية ٢١.

الغنائم فى اليرموك، وكان ابن عباس ـ مع علو قدره ـ يأخذ بركابه، ويقول: هكذا أُمِرْنَا أن نفعل مع علمائنا.

وزيد هو: زيد بن ثابت بن الضحاك الأنصارى الخزرجى، وأمه النوار بنت مالك من بنى النجار، فهو ينتهى نسبه من قبل الأبوين إلى بنى النجار، أخوال النبى ﷺ، وُلد بيثرب، وبها نشأ، وعاش بين أهله وعشيرته، وفى طفولته الأولى شَبَّ خلافٌ بين الأوس والخزرج، وقُتِلَ أبوه فى حرب «بعاث» التى وقعت بين الأَوْس والخزرج قبل هجرة النبى ﷺ بخمس سنين، وكان سِنُّهُ عند هجرة النبى ﷺ أحد عشر عامًا، حفظ ما نزل من القرآن، وكان النبى ﷺ يعجب بقراءته وخطه؛ لذلك اتخذه مِنْ كُتَّابِ الوحى، وأمره أن يتعلم لغة اليهود. وقد حَدَّثَ عن نفسه فقال: أتى بى النبى ﷺ عند مقدمه المدينة، فقيل له: هذا من بنى النجار، وقد قرأ سبع عشرة سورة، فقرأتُ عليه فأعجبه ذلك، فقال: تَعَلَّمْ كِتَابَ يَهُودٍ فإنى لا آمَنُهُم عَلَى كِتَابِى، ففعلتُ، فما مضى لى نصف شهر حتى حذقته، فكنت أكتب له إليهم، وإذا كتبوا إليه قرأت له.

وقيل أيضًا: إن النبى ﷺ قال له: إنى أكتب إلى قومٍ فأخاف أن يزيدوا أو ينقصوا، فَتَعَلَّمِ السريانية، فتعلمها فى سبعة عشر يومًا، هذا هو أحد التلاميذ النجباء الذين تخرجوا فى مدرسة المدينة الأولى ـ أعنى المسجد ـ على يد المعلم العظيم.

لقد كان زيد موهوبًا، قوى الذاكرة، خصيبَ الوعى، لقد اختاره النبى الكريم ليكون ترجمانًا له، وكاتبَ الوحى، ثم جامعًا للقرآن الكريم بعد انتقال النبى ﷺ للرفيق الأعلى، ومع هذا الذكاء والفهم، كان شجاعًا لايهاب الحروب، خرج مع رسول الله ﷺ فى مواقع حربية كثيرة. وعاش زيد على سَمْتٍ خاص فى خُلُقه، وكان من أَفْكَهِ الناس إذا خلا بأصدقائه وأهله، ومن أَوْقَرِ الناس فى مجالسه مع أنداده. كان مرموق المكانة؛ لذلك نرى ابن عباس ـ وهو ابن عم رسول الله ﷺ ـ يمسك له الركاب.

رُمِيَ يوم اليمامة بسهمٍ، وكتبَ الله له النجاة، وكان من أعلم الناس بالفرائض وتوزيعها. وفى الحديث عن النبى ﷺ: «أَفْرَضُ أُمَّتِى زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ». لقد قام بجمع القرآن فى خلافة أبى بكر، وتخرج على يده الكثيرون، وانتقل إلى الرفيق الأعلى سنة خمس وأربعين هجرية، وقال أبو هريرة عند موته: «اليوم مات خير هذه الأمة» ورثاه حسان بن ثابت بقوله:

فَمَنْ لِلْقَوَافِى بَعْدَ حَسَّانَ وَابْنِهِ ... وَمَنْ لِلْمَعَانِى بَعْدَ زَيْدِ بْنِ ثَابِتِ

هذا الرائد من الرواد الأوائل الذين تعلموا واستفادوا وتركوا لنا كنزًا كبيرًا من العلم والمعرفة ما زالت الإنسانية تسعد به إلى اليوم من تلاميذ المسجد النبوى.

وإذا كنا طوفنا فى هذه الحديقة الفيحاء واقتطفنا منها تلك الزهرة اليانعة فلنعد إلى أصل تلك المدرسة وقائدها العظيم، إنه سيد الخلق محمد بن عبد اللّه، نبى اللّه ورسوله الذى أخرج الناس من الظلمات إلى النور، وفيه يقول الحق سبحانه: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[1]

كَان هذا النبى العظيم ـ وما زال، وسيظل إلى مايشاء اللّه ـ يغذى العقول والأفكار بالعلم والمعرفة؛ لأن الصحابة ـ رضوان اللّه عليهم ـ نقلوا سيرته بدقة وأمانة إلى الإنسانية، وأصبحت سُنَّتُهُ سيرة من ميراث البشرية، حتى يَرِثَ اللهُ الأَرْضَ ومَنْ عليها.

ومن سيرته المشرفة ما عهد فيه من حِلْمٍ ولين ورفق وسعة صدر، يدل على ذلك هذا الحديث الذى رواه مسلم عن أَنَسٍ، فى حديث الأعرابى الذى بال فى المسجد: «إِنَّ هَذِهِ المَسَاجِدَ لا تصلُح لِشَىْءٍ مِنْ هَذَا الْبَوْلِ وَلاَ القَذَرِ، إِنَّمَا هِىَ

(١) سورة المائدة ـ آخر الآية ١٥ وكل الآية ١٦.

لِذِكْرِ اللهِ، وَالصَّلاَةَ، وَقِرَاءَةَ القُرآن». وكأنه أراد أن يوجه الدعاة أن يكونوا على مستوى المسئولية، وأن يكونوا نماذج طيبة تتمتع بسعة الصدر، والأخذ بيد المسيء حتى يصل الجميع إلى بر النجاة؛ لهذا كان الصحابة يجتمعون فى المسجد يتدارسون ميراث النبوة، وهو ما حدده الرسول ﷺ: «تَرَكْتُ فِيكُمْ ما إِنْ تَمَسَّكْتُمْ بِهِ لَنْ تَضِلُّوا بَعْدِى أَبَدًا: كِتَابَ اللهِ، وَسُنَّتِى».

ولقد رَوَى الطبرانى أنَّ أبا هريرة ـ رضى اللّه عنه ـ مَرَّ بسوق المدينة، فوقف وقال: يا أهل السوق، ما أعجزكم!؟ قالوا: وما ذَاكَ يا أبا هريرة؟ قال: ذَاكَ مِيرَاثُ النَّبِىِّ ﷺ يُقَسَّمُ وأنتم هَا هُنَا!! ألا تَذْهَبُونَ فتأخذوا نَصِيبَكُم مِنْه؟ قالوا: وَأَيْنَ هُوَ؟ قال: فى المسجد، فخرجوا سراعًا، ووقف أبو هريرة لم يبرح مكانه حتى رجعوا، فقال لهم: مَالَكُمْ؟ فَقَالُوا: يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، أَتَيْنَا الْمَسْجِدَ فَدَخَلْنَا فِيهِ فَلَمْ نَرَ شَيْئًا يُقَسَّمُ. فَقَالَ لهم أبو هريرة، ـ رضى الله عنه ـ: أَمَارَأَيْتُمْ فى المسْجِدِ أَحَدًا؟ قالوا: بلى، رَأَينَا قَوْمًا يُصَلُّونَ، وقومًا يَقْرَءُونَ القُرْآنَ، وقَوْمًا يَتَذَاكَرُونَ الحلاَلَ وَالْحَرَامَ، فَقَالَ لَهُمْ: وَيْحَكُمْ، فَهَذَا مِيرَاثُ محمدٍ، ﷺ!

واتخذ النبى ﷺ مسجده مكانًا للتعليم والتفقه فى الدين؛ ولذلك ورد الحث على إطالة المكْثِ فى المسجد إنْ لم تكن هناك حاجة تدعو الفرد للانصراف، كالسَّعْى على المعيشة، أو قضاء مصالح أخرى؛ بمعنى أن وقت فراغ الإنسان يقضيه فى المسجد؛ ولذا ورد فى الحديث الذى رواه الإمام مسلم، أن رسول الله ﷺ قال: «ألا أَدُلُّكُمْ عَلَى ما يَمْحُو اللهُ بِهِ الخَطَايَا وَيَرْفَعُ به الدَّرَجَات؟ قَالُوا: بَلَى يَارَسُولَ الله. قَالَ: إِسْبَاغُ الوَضوء عَلَى المكَارِه، وَكَثْرَةُ الخُطَا إلى المسَاجِدِ، وَانْتِظَارُ الصَّلاَةِ بَعْدَ الصَّلاَةِ، فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ، فَذَلِكُمَ الرِّبَاطُ».

وجاء فى حديث آخر: «إنَّ اللهَ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ ضَمِنَ لِمَنْ كَانَت المسَاجِدُ بَيْتَهُ الأَمْنَ وَالْجَوَازَ عَلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ» وهذا الخير الذى أعده الله لروَّاد المساجد يكثر لمن أنهى أعماله، ودبر شئون معيشته، وقضى مصالح أهله، ثم أمضى وقت فراغه فى المسجد والاعتكاف فيه؛ لأن المساجد من أشرف بقاع الأرض،

(١) ذو: صاحب وبكة: مكة.

حسبما ما ورد فى الحديث الذى رواه الإمام مسلم: «أَحَبُّ البلادِ إلى اللهِ تَعالَى مَساجِدُهَا، وأَبْغَضُ البلادِ إلى الله تَعالى أسْوَاقُها»؛ لأن فى المسجد ذكر الله، ومذاكرة الحلال والحرام، أما الأسواق ففيها الكذب والغش والخداع، إلاَّ مَنْ عصم الله والتزم بخُلق دينه.

ويقول الداعية الأول - رسول الله ﷺ - فى حديث شريف رواه الإمام الترمذى: «سَبْعَة يُظِلُّهُمُ اللهُ فى ظلِّه يَوْمَ لا ظِلَّ إلاَّ ظِلُّهُ: إمَامٌ عَادِلٌ، وَشَابٌّ نَشَأَ فى عِبَادَة الله، ورَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ بالْمَسَاجد، وَرَجُلاَن تَحَابَّا فى الله، اجْتَمَعَا عليه وَافْتَرَقَا عليه، ورَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصب وجَمَال فَقَالَ: إنِّى أَخَافُ الله، وَرَجُلٌ ذَكَرَ الله خَاليًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَة فَأَخْفَاهَا، حَتَّى لا تَعْلَمُ شِمَالُه ما أَنْفَقَتْ يَمِينُهُ». هؤلاء من الذين رضى الله عنهم فَرَضُوا عنه، أعمالهم طيبة، ونفوسهم مشرقة؛ لهذا بشرهم رسول الله بظلٍّ الله يوم القيامة.. ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾﴾(١).

يَوْمَ ﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ﴾(٢).

وقد دنت الشمس من الرءوس، واشتد الكرب، وود الناس الانصراف من هذا الموقف الرهيب، تكون هناك فئة من الناس فى رحمة الله وعطفه، من هؤلاء رَجُلٌ قلبُه مُعَلَّقٌ بالمساجد.

إن المساجد لِشَرَفِهَا أضَافَها اللهُ إليه، فقال تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾(٣).

وقال - جل وعلا: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾(٤).

---

(١) سورة عبس - الآيات من ٣٤ - ٣٦.
(٢) سورة المعارج - الآيات من ١١ - ١٣.
(٣) سورة الجن - من الآية ١٨.
(٤) سورة التوبة - الآية ١٨.

إن المسلم مُطالَب بأن يُحافظ على الصلاة جماعة فى المسجد، فإذا قُضيَت انصرف الشخص للسعى على معاشه، قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[1].

إن الإسلام عند ما رغبك فى الجلوس فى المسجد لتتزود من الخير فى رحابه وما يتردد بين جنباته أراد لك الخير والسعادة، أمَّا أن يهرب الإنسان من عمله ويجلس فى المسجد فهذا شىء لا يقره الإسلام؛ لأنه لا رهبانية فى الإسلام، ولا دروشة ممقوته يحترفها بعض الناس باسم الإسلام، فهذا شىء مرفوض؛ ولذلك ورد أن سيدنا عمر بن الخطاب وجد جماعة فى المسجد يدعون أنهم من المتوكلين، فقال لهم: لا يقعدن أحدكم عن طلب الرزق ويقول: اللهم ارزقنى، وقد عَلِمَ أن السماء لا تُمطر ذهبًا ولا فضة.

إن الحق - جل جلاله - وزع الصلاة على فترات فى اليوم والليلة؛ لتكون بمثابة محطات يستريح الإنسان عندها ويتزود منها ويخرج بشحنة إيمانية يستطيع بها أن يواصل عمله بعد ذلك بهمة وكفاءة؛ ولذلك حدث أن النبى ﷺ دخل المسجد فرأى أحد الصحابة يجلس فيه، والوقت وقت سَعْى ومَشْىٍ فى مناكب الأرض، فسأله: ما الَّذى أجلَسَكَ الآنَ وقد قُضِيَت الصَّلاَة؟ قال: يا رسول الله، دُيُونٌ لَزِمَتْنِى وهُمومٌ لَحِقَتْنِى. فأفهمه النبى ﷺ أن جلوسه فى المسجد لا يَقْضِى عنه دينًا ولا يُفَرِّج هَما، وأمره بالسعى مستعينًا باللّه، ونصحه أن يستعيذ بالله من الهم والحزن والعجز: «اللَّهُمَّ إِنِّى أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْهَمِّ وَالْحَزَنِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْجُبْنِ والبُخْلِ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ غَلَبَةِ الدَّيْنَ وقَهْرِ الرِّجَالِ».

---

(١) سورة الجمعة - الآية ١٠.

إن المسجد لا يعطل نشاط الفرد، بل يدعم سعيه بالثواب؛ ولهذا يقول الحق سبحانه: ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴾[1].

أى: إذا انتهيت مِنْ صَلاتِك فاجتهد فى عملك واتعب، ولا تقعد عن أداء واجباتك فى الحياة، فإن السعى على المعاش عبادة.

إن مجتمع المدينة بقيادة سيدنا محمد شهد نظرية التطبيق الرائد لآى القرآن الكريم، فكان رسول الله ﷺ يقود أصحابه بالممارسة العملية إلى تطبيق نظرية الدين وتحويلها إلى سلوك، وكان المسجدُ الذى فُرِشَ بالرمال والحَصْبَاء مدرسةً خَرَّجَتْ قادة العالم، ورَبَّتْ أئمة المسلمين فى كل مَناحِى الحياة. لقد تفجر منه نبع الحضارة الزاهرة، وتعهد رسول الله ﷺ رواده بالتربية المثمرة والمعرفة النافعة، وفى رحاب المسجد تم التحامٌ بين الناس، وقبل ذلك رَبَطَهُم بخالقهم.

لقد انصهرت مشاعر الإيمان فى جو المسجد وَائْتَلَفَت العناصر المختلفة تحت راية الله، واختفت العصبية، فما أروع تلك الجامعة العظيمة التى عجزت الدنيا أن تأتى بمثلها؛ لأن الجميع عاش فى نعمة الهدوء وأجواء السلام.. لقد تحول مَنْ فى المجتمع مِنْ متناحرين عابدين للأوثان، إلى جُنودٍ للحق مخلصين، ودعاة إلى الله متجردين من كل هوى، بين جوانحهم خير، وعلى لسانهم الكلمات العفيفة، وعلى وجوهم نور... كانوا كما نقول: «عندهم ضمير» نما واستيقظ فى تلك المدرسة الجامعة، وكما يقول فيهم الشاعر:

اللهُ يَعْرِفُهُمْ عُبَّادَ مَسْجِدِهِ وَالنَّاسُ تَعْرِفُهُمْ لِلْخَيْرِ أَعْوَانَا

والمجتمع اليوم يستطيع العودة إلى المسجد؛ ليتزود بزاد التقوى والخُلُق، حتى تخمد النار المشتعلة فى نفوس البشر؛ ذلك لأنه بالعودة إلى المسجد سيتم تربية الأفراد من جديد، والأمة التى تريد أن تبنى أبناءها لابد أن تُنَشِّئَهُمْ على الدين الصحيح، وتغرس فى نفوسهم العقيده الصحيحة التى تعتمد على وحى

(١) سورة الشرح ـ الآية ٧.

الله وهدى أنبيائه ورسله؛ لهذا كان رسول الله ﷺ يهتم بتربية الأفراد، وتأسيس النفوس على الحق والخير، وتعويدهم على التمسك بالمبادئ الأخلاقية التى كانت تنزل عليه وحيًا من الله؛ ولذلك لما سُئلت السيدة عائشة ـ رضى الله عنها ـ عن خُلُقِ رسول الله ﷺ قالت: «كَانَ خُلُقُه القُرْآن».

إن الصحابة الكرام الذين فقهوا الدروس المحمدية ووعوها وطبقوها فى سلوكهم سَعِدَت الإنسانية بهم، وازدهرت الحياة بفضل عملهم. والمسجد بعطائه قائم، وما على البشر إلاَّ أن يدخلوا إلى رحابه بإخلاص، وفى نيتهم الاستقادة منه، وسوف تتغير تلك الحالة التى تعانيها الإنسانية من الاضطراب والخوف إلى الاستقرار والأمان. إن المسجد الذى يفتح أبوابه للكبار والصغار والشباب من الجنسين يقدم لكُل ما يتلاءَم مع سنِّه وفكره. وكان من منهج الداعية الأول: «أُمِرْتُ أَنْ أُخَاطِبَ النَّاسَ عَلَى قَدْرِ عُقُولِهِمْ». ولكن حدث أن ابتعد المسلمون عن منهاج ربهم، وتركوا سُنة نبيهم، وتفرقوا شيعًا وأحزابًا، كل فريق يؤيد رأيه وينتصر له ويهدم الرأى الآخر، ولو كان هو الحق، وانغمس المسلمون فى هذا الخلاف، فكان نتيجة ذلك أن فطن الاستعمار لهذا الخلاف الناشب بين المسلمين، فأعد عُدته وغزا بلاد المسلمين واستعمرها، وكان يعلم مسبقًا دور المسجد فى الأمة، وأنه قلبها النابض، وروحها الخافق، ودوره غير خاف على أحد؛ لهذا نشر حوله سياجًا من الأفكار الوافدة الغريبة على أُذُن الأمة الإسلامية، وعمل على تجفيف كل الروافد التى تصب فيه حركة ونشاطًا، فتهالك دور المسجد وأظلم، وأصبحت مواعظه ودروسه باهتة، لا تخدم غرضًا، ولا تحقق غاية، وكانت الدواوين الخطابية التى تتداولها الأيدى سببًا فى الخواء الروحى.

لقد أصبح التزمت الفكرى سببًا فى انصراف الناس وبعدهم عن المسجد، وانتشرت المقاهى وما شاكلها، فجلس الناس عليها حلقًا يقضون أوقاتهم ويضيعون ساعات العمر التى سيُحاسبون عليها غدًا أمام رب العالمين، لأنه جاء فى الحديث: «لا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حتى يُسْأَلَ عَنْ أَرْبَعٍ: عَنْ عُمرِه فيم

أَفْنَاهُ؟ وعَنْ شَبَابِه فِيَم أَبْلاَهُ؟ وعَنْ عِلْمِهِ مَاذَا عَمِلَ بِهِ؟ وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ؟ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ؟».

وفى غمار هذه المحنة القاسية التى ألمت بالمسجد عانى المجتمع كله بسبب ضياع الأخلاق الكريمة، وتأخر المسلمون فى كل فن وعلم، فى حين تقدم غيرهم. مع هذا لم يذب المسجد، ولم تضع علومه، ولم ينصهر فى أتون تلك المحن المتتالية، وإنما وقف شامخًا يدفع السيل الداهم. ويرد العدو والهاجم، ويصنع الرجال الذين يؤججون أخطر الثورات للقضاء على الظلم، وطرد العدو، وتصحيح الفكر الذى أصابه السقم.. وحلقات الدروس لم تنقطع فى رحابه، مما كان سببًا فى الحفاظ على اللغة العربية، التى هى لغة القرآن الكريم، علاوة على أنها أهم مقومات الأمة العربية.

٣ ـ جامع عمرو بن العاص

لقد جرى العرب فى فتوحاتهم على أن يؤسسوا فى الأقطار التى يفتحونها عواصم جديدة يختارون موقعها بما يتفق ومصالحهم العامة، ففيما يتعلق بمصر ـ بعد أن فتحها العرب ـ أسس عمرو بن العاص حاضرة جديدة سنة إحدى وعشرين للهجرة فى المكان المتسع الذى يقع إلى الشمال من حِصْن بابليون، وأسماها الفسطاط...

وما كاد عمرو بن العاص ينتهى من تأسيس مدينة الفسطاط حتى أقام فى وسطها جامعه العتيق.. كانت مساحةُ جامع عمرو فى أول أمره خمسين ذراعًا طولاً وثلاثين ذراعًا عرضًا، وكان سقفه منخفضًا جدًا، ولا صَحْنَ له.

قال الكندى عن يزيد بن أبى حبيب: سمعتُ أشياخنا ممن حضر مسجد الفتح «جامع عمرو» يقولون:

وَقَفَ على إقامة قِبْلَةِ المسجد الجامع ثمانون رجلاً مِنْ أصحاب رسول الله

ﷺ، فيهم الزبير بن العوام، والمقداد، وعبادة بن الصامت، وأبو الدرداء، وفضالة بن عبيد، وعقبة بن عامر، وأبو ذر الغفارى ـ رضى الله عنهم[1]...

وأول من زاد فى جامع عمرو هو مسلمة بن مخلد الأنصارى، والى مصر مِنْ قِبَلِ الخليفة معاوية بن أبى سفيان، وكان ذلك سنة ٥٣ هـ.

وكانت الزيادة الثانية ـ كما يقول القضاعى ـ فى عهد عبد العزيز بن مروان... كذلك أَمَرَ عبد الله بن مروان والى مصر مِنْ قِبَلِ أخيه الوليد برفع سقف المسجد ـ وكان مُطَأْطَأً ـ وذلك فى سنة ٨٩ هـ.. ثم إنَّ قُرَّةَ بن شريك العبسى هَدَمَ الجامع فى مستهل سنة ٩٢ هـ بأمر الوليد بن عبد الملك، وفرغ من بنائه سنة ٩٣ هـ ـ ونصب المنبر الجديد فى سنة ٩٤ هـ، ونزع المنبر الذى كان فى المسجد من عهد عمرو بن العاص، وكان منبر جامع عمرو هو المنبر الوحيد فى مساجد مصر[2]... وأمر قُرة بن شريك بعمل المحراب المجوف، وهو المحراب المعروف باسم محراب عمرو؛ لأنه فى سَمْتِ محراب المسجد القديم الذى بناه عمرو بن العاص.

وفى العصر العباسى زاد فى المسجد صالح بن على، والى مصر مِنْ قِبَلِ أبى العباس السفاح، وذلك بإضافة أربعة أساطين فى مؤخرته، وذلك فى سنة ١٣٣ هـ.

وفى سنة ٢١٢ هـ أمر عبد الله بن طاهر أمير مصر من قبل الخليفة المأمون بالزيادة فى المسجد، وبذلك أصبحت مساحته تقارب مساحته الحالية، وأصلح بنيان السقف.

وفى عهد الدولة الطولونية وقع فى مؤخرة المسجد حريق هلك فيه أكثر زيادة عبد الله بن طاهر فأمر خمارويه بعمارته، فأُعيد على ما كان عليه.

وفى العصر الإخشيدى نقش أكثر العُمُد وطُوِّقَتْ بأطواق من الفضة، حتى إذا ما جاء منتصف القرن الرابع الهجرى كان المسجد بالغًا حَدَّهُ من الزُّخرف.

---

(١) انظر: مساجد مصر، لسعاد ماهر، ج ١ ص ٦٢.

(٢) انظر: المصدر السابق ص ٦٥.

وبالرغم من أن الجامع الأزهر هو مسجد الدولة الرسمى فى عصر الدولة الفاطمية فإن جامع عمرو بن العاص حَظِىَ بكثير من العناية والرعاية من الخلفاء الفاطميين.

ولما أُحرقت مدينة الفسطاط سنة ٥٦٤ هـ خوفًا من استيلاء الصليبيين عليها، واستمرت النيران مستعرة (٥٤) يومًا، تهدمت المدينة، وخربت مبانيها، وتشعث جامع عمرو... فلما استقل صلاح الدين بِحُكْم مصر كان من أهم الأعمال المعمارية التى اهتم بها عمارة جامع عمرو[١].

وقد توالت يد الإصلاح والتعمير والتجديد طول العصر الملوكى، فيذكر لنا المقريزى وصفًا مسهبًا سهلاً عن كل تجديد قام به أى سلطان من السلاطين، فيذكر عمارة الظاهر بيبرس سنة ٦٦٦ هـ، ثم عمارة المنصور قلاوون سنة ٦٨٧ هـ، والأمير سلاد سنة ٧٠٣ هـ وغيرهم.

ولما جاءت الحملة الفرنسية جرى على مسجد عمرو ما جرى لغيره من الهَدْم والتخريب.

وكان لجامع عمرو وظائف متعددة؛ إذ لم يقتصر عمله على أداء الفرائض الدينية فحسب، بل كان جامعة تعقد فيه حلقات الدرس على كبار العلماء والفقهاء، وقد سبق الجامع الأزهر فى وظيفة التدريس بأربعة قرون وجلس فيه للتدريس الصحابى الجليل عبد الله بن عمرو بن العاص، بأمر من الخليفة عمر ابن الخطاب، وكان يعلم الناس أحكام الدين الإسلامى... والإمام الشافعى، وكثير من الأئمة والأعلام على مر العصور.

ويقول المقريزى ـ نقلا عن ابن الفرات: «أنه أدرك بجامع عمرو بن العاص بمصر ـ قبل الوباء الكائن فى سنة تسع وأربعين وسبعمائة ٧٤٩ هـ ـ بضعًا وأربعين حلقة لإقراء العلم لا تكاد تبرح منه».

وكان يُقام بالجامع حلقات دروس ووعظ للسيدات تصدرتها ـ فى الدولة الفاطمية ـ واعظة زمانها أم الخير الحجازية... ولم تنقطع أخبار التدريس بهذا الجامع إلاَّ فى القرن التاسع الهجرى[٢].

---

(١) المصدر السابق ص ٦٨.

(٢) المصدر السابق ص ٧٣..

وكانت تعقد بالجامع محكمة لفض المنازعات الدينية والمدنية، يقول المقريزى عن ذلك: «وبالجامع - أى جامع عمرو - ثلاث زيادات، فالبحرية الشرقية كانت لجلوس قاض القضاء بها، فى كل أسبوع يومان».

كما كان بجامع عمرو بيت للمال كان موقعه أمام المنبر، وقد ذكره ابن رسته - من علماء القرن الثالث الهجرى - ووصفه بأنه شبه قبة عليها أبواب من حديد.

وكان للمسجد وظائف أخرى متعددة لا يتسع المقام هنا لذكرها[1]. والجدير بالذكر - ونحن نتحدث عن أول وأقدم جامع فى مصر، بل فى القارة الإفريقية - أن نذكر أن هذا المسجد العتيق - دون غيره من مساجد مصر - هو الوحيد الذى كان الخلفاء والسلاطين والولاة والأمراء يصلون فيه الجمعة اليتيمة فى آخر شهر رمضان.. وقد نشأ هذا التقليد منذ عهد الدولة الفاطمية، واتخذت عادة حتى سنة ١٩٥٢هـ.

٤ - الجامع الأزهر

ثالث المساجد الكبرى التى بُنيت فى مصر منذ الفتح الإسلامى، فأولها مسجد الفتح، وقد بناه عمرو بن العاص بمدينة الفسطاط (مصر القديمة) وثانيها مسجد ابن طولون، وقد بناه أحمد بن طولون بمدينة القطائع. وثالثها الأزهر، وقد بناه «جوهر الصِّقلى» بمدينة القاهرة، فَمَنْ هو جوهر الصقلى؟ هو أبو الحسن جوهر بن عبد الله الصقلى، وكان قائدًا عسكريًا فى خدمة المعز لدين الله الفاطمى.

وقام جوهر الصقلى بغزو مصر يوم الثلاثاء الثامن عشر من شعبان سنة ٣٥٨، أما بناء الأزهر فكان بعد عام من هذا الغزو.

وقد أمر جوهر الخطباء أن يخلعوا السَّوَادَ - شعار العباسيين - ويلبسوا البياض - شعار الفاطميين - وأن يقولوا فى الخطبة: «اللهم صَلِّ على محمد المصطفى، وعَلِى المُرْتَضَى، وعَلَى فاطمة البَتُول، وعَلَى الحَسَن وَالْحُسَيْنِ سِبْطَيِ الرَّسُول،

(١) لمزيد من الاطلاع انظر: مساجد مصر وأولياؤها الصالحون، لسعاد ماهر ج١ ص ٥٥ - ٧٦.

الَّذِينَ أَذْهَبَ الله عنهم الرِّجْسَ وطَهَّرَهُمْ تَطْهِيرًا، وصَلِّ على الأئمة الطاهرين، آباء أمير المؤمنين المعز لدين الله».

ففعلوا ما أمرهم به.

انقطاع الخطبة من الأزهر:

ولَمَّا طَرَدَ صلاحُ الدين يوسفُ بن أيوب الفاطميين من مصر، قَلَّدَ - أى صلاح الدين - عبد الملك بن درباس وظيفة قاضى القضاة، وكان سُنِّيا، شافعىَّ المذهب، فمنع الخطبة من الأزهر، وأَقَرَّهَا بالجامع الحاكمى - أى جامع الحاكم بأمر الله الفاطمى - بالجمالية؛ لكونه أَوْسَعَ منه، وفقًا لمذهبه.

عودة الخطبة إلى الأزهر وبدء نهضته:

ومضى على الأزهر قرن من الزمان مهملاً بعد نقل الخطبة منه إلى مسجد الحاكم بأمر الله، حتى جاء الملك الظاهر بيبرس، فزاد فى نبائه، وشجع التعليم فيه، وأعاد الخطبة إليه سنة ٦٦٥ هـ وَحَذا حذوه فى الاهتمام بالأزهر طائفة من الأمراء، وأصبح الأزهر معهدًا علميًا جامعًا تُدَرَّس فيه شتى فروع العلوم الدينية والعلمية واللغوية، وغيرها.

وتاريخ الجامع الأزهر - كما ذكرنا - يرتبط بمؤسس القاهرة جوهر الصقلى، قائد المعز لدين الله الفاطمى، الذى ابتدأ العمل به فى ٢٤ من جمادى الأولى سنة ٣٥٩ هـ - ٩٧٠م وانتهى من بنائه فى رمضان سنة ٣٦١هـ / ٩٧٢م وأُقيمت به أول جمعة فى السابع من رمضان فى السنة المذكورة.

وأُنْشِئَ الأزهر - كغيره من المساجد - لتُقامَ به الشعائر الدينية، ولكن لم يلبث أن أصبح جامعة يتلقى فيها طُلاَّب العلم مختلف العلوم الدينيه والعقلية، وبذلك يُعَدُّ الجامع الأزهر من أقدم وأشهر الجامعات فى العالم الإسلامى.

كما يُعد الجامع الأزهر أول عمل معمارى فاطمى عاصر تأسيس القاهرة، وظل باقيًا حتى اليوم. وقيل إن الاسم الذى أُطلق عليه - وهو «الأزهر» - مُتَّخَذٌ من لفظ «الزهراء» لقب السيدة فاطمة بنت رسول الله ﷺ.

وقد رأى الفاطميون فى إقامة الأزهر مجاراة للتقاليد الإسلامية التى شرعها المسلمون عند تأسيس عواصمهم ومدنهم، من ضرورة إقامة جامع لأداء فريضة

الصلاة، ومناقشة شئونهم السياسية والاجتماعية، ومن ناحية أخرى فإن جوهرًا الصقلىّ مؤسس القاهرة رأى من حُسن السياسة وبُعد النظر إقامة جامع خاص بالفاطميين ـ الشيعة ـ ليكون مركزًا لنشر تعاليمهم.

والجامع الأزهر الذى نراه اليوم لاترجع مبانيه كلها إلى عهد جوهر الصِّقلى، بل إن الجزء الفاطمى كله لايزيد على نصف مساحة الجامع الحالية بعد أن أُضيفت إليه ـ فى عصور مختلفة ـ مجموعة من الأبنية الأثرية.

وإذا حاولنا أن نحدد تخطيط الجامع الأزهر منذ إنشائه فَلْنَدْخُل إلى الجامع من بايه الرئيسى المطل على الميدان، حيث نجد على اليمين المدرسة الطيبرسية، وعلى اليسار، المدرسة الأقبغاوية، وهما عمارة مملوكية، ولنتقدم حتى نصل إلى الباب المواجه لنا، فهو باب قايتباى، وعلى يسارنا مئذنة، وعلى يميننا مئذنة الغورى ذات الرأسين، ثم نصل إلى صحن مكشوف للجامع، يحيط به عقود مقامة على أعمدة، وهى مضافة فى عهد الخليفة الحافظ. وصحن الجامع المكشوف مستطيل الشكل، مساحته ٥٩ × ٤٣ مترًا، وعلى جانبيه من الشرق والغرب رواقان، وإذا اتجهنا مستقبلين القبلة فإننا نكون فى الواقع قد وصلنا إلى حيث رواق الصلاة للجامع الأزهر الأصلى منذ عهد جوهر الصقلى.. وقد كانت مساحة الجامع الفاطمى ٨٨ × ٧٠ مترًا.

وخلف رواق القبلة الأصلى الفاطمى رواق آخر يتميز بأرضية مرتفعة، وهو الرواق الذى أضافه عبد الرحمٰن كَتْخُدَا.

ولا يزال الجامع الأزهر يختفظ بأجزاء مهمة من عناصره المعمارية الأصلية بالرغم من أعمال التجديد والإضافة التى أجريت خلال العصور التاريخية المختلفة، وتشتمل الزخارف الفاطمية الأصلية فى الجامع الأزهر على العناصر الهندسية والنباتية، والكتابات الكوفية.

وفى العصر العثمانى أجرى الأمير عبد الرحمٰن كتخدا عمارات كثيرة فى الجامع الأزهر، فأضاف إلى رواق القبلة رواقًا آخر يشتمل على ٥٠ عمودًا

رخاميًا تحمل بوائك ذات عقود حجرية، وبنى فى هذا الرواق محرابًا جديدًا من الرخام، وضع له منبرًا من الخشب، كما أنشأ الباب المعروف باسم باب الصعايدة، الواقع فى نهاية الواجهة القبلية وبداخله مكتب لتحفيظ القرآن الكريم، يجاوره منارة شيدها، وقبة أعد بها قبرًا دُفن فيه، كما أنشأ الباب المعروف بباب الشوربة.. تجاوره منارة أخرى، كما جدد واجهة المدرسة الطيبرسية والأقبغادية، وجمع بينهما بالباب الكبير ذى الفتحتين، المعروف باسم «باب المزينين» المشرف على ميدان الأزهر.

وتوالت أعمال التجديد والتعمير بالجامع، إلى أن كانت سنة ١٣١٢هـ / ١٨٩٥م، فقد أمر الخديو عباس حلمى الثانى بإنشاء الرواق العباسى، وتجديد الواجهة البحرية المقابلة لمسجد «محمد بك أبو الذهب».

والأزهر يضم أروقة، ومدارس، ومحاريب، وأبوابًا ومآذن أُقيمت فى عصور مختلفه، ولا مثيل لها فى أى مسجد آخر.

ويجرى حاليًا تنفيذ مشروع ترميم الجامع الأزهر ترميمًا شاملا، وإعادة تخطيط المنطقه المحيطة به، حتى يظهر الجامع بالصورة الحضارية اللائقة بمكانته وأهميته.

٥ ـ جامع أحمد بن طولون

أحمد بن طولون من الشخصيات الشهيرة التى حكمت مصر. وإليه ينسب تأسيس الدوله الطولونية. وقد ولد فى شهر رمضان ٢٢٠ هـ فى مدينه بغداد، وكان يمتاز بالشجاعة والذكاء والنشاط والعلم، والتقوى، والصلاح، وقد أجمع المؤرخون على أنه كان رجلاً وحاكمًا ممتازًا.. وقدم إلى مصر عام ٢٥٤هـ حيث كان المعتز على عرش الخلافة، وقد أَقْطَعَ «باكباك» ـ زوج والدة أحمد بن طولون ـ مصر عام ٢٥٤ هـ وكان من عادة القواد أن يحيطوا أنفسهم بالجند ممن يُشايعونهم، وكان أحمد بن طولون قائدًا له شأن فى وسط الجند، لمهارته، ولما عُرف عنه من الصلاح والتقوى، ولما كان يتمتع به من ذكاء وبُعْد نظر وفراسة، كما كان كريمًا، ومن ثَمَّ استطاع أن يضم لنفسه إدارة خراج البلاد، ثم أصبح أميرًا على مصر والإسكندرية وبَرْقة، وجَهز جيشًا قويًا، وكان يعالج المشاكل

بحكمة ولباقة. وقد استطاع أن يُكَوِّن جيشًا عظيمًا، ولأول مرة على يديه استقلت مصر عن الخلافه العباسية، وأصبح لها أسطول.

وكان ابن طولون يحب رعيته ويعس بالليل ليتعرف على أحوال المواطنين؛ لذلك أفادت مصر من حكم الدولة الطولونية، وعَمَّ فيها الرَّخَاء وخطبت الدولُ وُدَّها.

هذا، ولما ضاقت مدينة الفسطاط بساكنيها أسس أحمد بن طولون مدينة القطائع عام ٢٥٦ هـ، وأقام فى وسطها مسجدًا جامعًا تمت عمارته عام ٢٦٥ هـ، ويعد هذا المسجد من أكبر مساجد العالم الإسلامى، إذ تبلغ مساحته ستة أفدنة ونصفًا، ويقول المقريزى: إن ابن طولون بنى المسجد فى موضع يُعْرف بجبل «يَشْكُر» وهو مكان مشهور بإجابة الدعاء؛ لأنه قيل: إن موسى عليه السلام ناجى ربه عليه بكلمات».

ويقول الإمام القضاعى: إن ابن طولون قال: أريد أن أبنى بناءً إن احترقت مصر بقى، وإن غرقت بقى. فقيل له: يُبْنَى بالجير والرماد والآجر الأحمر القوى، ولا يُجعل فيه أساطين رخام، فإنه لاصبر لها على النار، فبنى هذا البناء ـ وبناه على بناء «جامع سامرا» وكذلك المنارة.

وقال ابن عبد الظاهر: سمعتُ غير واحد يقول: إنه لما فرغ أحمد بن طولون من بناء الجامع أمر حاشيته بسماع ما يقول الناس فيه من الأقوال والعيوب، فقال رجل: محرابه صغير. فكان رد ابن طولون بقوله: إنى رأيتُ رسول الله وقد خَطَّهُ لى فى المنام ـ فلما أصبحت رأيتُ النمل قد طافت بذلك المكان الذى خطه لى رسول الله ﷺ.

وقيل: لما فرغ ابن طولون من بناء المسجد رأى كَأَنَّ نارًا نزلت من السماء فأخذت الجامع دون ما حوله من العمران، فلما أصبح قَصَّ رؤياه، فقيل له: أَبْشِرْ بقبول الجامع المبارك؛ لأَنَّ النَّارَ فى الزمن الماضى كانت إذَا قَبِلَ اللهُ قُرْبانًا نزلت من السماء فأخذته ـ ودليله قصة قابيل وهابيل.

والمسجد متعدد المحاريب كما هو الحال فى كثير من المساجد، مثل الجامع الأموى، والجامع الأزهر، وعدد محاريب جامع ابن طولون خمسة، أكبرها وأهمها الأوسط، وصحن المسجد الفسيح يملأ النفس إجلالاً، فهو شاسع، رفيع الجدران، تطل عليه البوائك من كل ناحية.

وكان العلماء يقومون بالتدريس فى مسجد ابن طولون، خاصة تدريس الفقه على المذاهب الأربعة، كما كانت تقام فيه حلقات لتدريس التفسير والحديث، علاوة على الطب.

وفى القرن الثانى عشر كان الجامع مهملاً، فأُنْشِئ فيه مصنع لعمل الأحزمة الصوفية، ثم تحول إلى ملجأ للعجزة والمسنين فى سنة ١٢٦٣ هـ، وكان العمل تحت إشراف شخصيات تفهم ذلك، كما كان فى الجهة الجنوبية من المسجد سبيل وكتّاب لتحفيظ القرآن الكريم. كما أنشئ مكتب لإقراء أيتام المسلمين كتاب الله والعلوم التى يرغبون فى تعلمها ونلحظ أن هذا المسجد الجامع أدى دورًا رائدًا ورائعًا فى نشر الثقافة والعلوم والمعارف علاوة على الأصلين العظيمين، وهما: كتاب الله ـ وماله من تفاسير ـ وحديث رسول لله ﷺ، وما يتصل بذلك من علوم ومعارف.

٦ ـ مسجد دمشق (المشهور بالمسجد الأموى)

من أشهر مساجد الشام، بناه الوليد بن عبد الملك بين سنتى ٨٨ ـ ٩٦ هـ (٧٠٨ ـ ٧١٤م) وكان الوليد مولعًا بالعمارة، وخاصة عمارة المساجد، فاستقدم له الفنيين والصُّنَّاع من سائر الأقاليم الإسلامية، وأنفق على عمارته خراج دولته سبع سنين.

ويُعَدُّ هذا المسجد من أعظم المساجد الإسلامية لرحابته، وارتفاعه، وجمال نِسَبِه المعمارية، وزخارف الفسيفساء المذهَّبة والملونة التى تغطى بعض أجزائه التى تمثل مناظر دمشق وقتها، كما يعد آية من آيات الفن العربى والبيزنطى. ولا

يزال حافظا لرونقه وبهائه إلى اليوم، وقد قيل: عجائب الدنيا أربع: «قنطرة سنجة، ومنارة الإسكندرية، وكنيسة الرها، ومسجد دمشق». وهذا يدل على ما بلغه هذا المسجد من الرواء والإتقان والكمال.

وفى أيام عمر بن عبد العزيز جاءت وفود الروم من قِبَلِ إمبراطور الروم، ورغبوا فى زيارة المسجد الأموى، فسمح لهم عمر بن عبد العزيز، فلما مَرُّوا بصحن المسجد ورأوا عظمة البناء، نكس رئيس الوفد رأسه وقال متأثرًا بما رأى: «إنَّا ـ معشر الروم ـ كنا نتحدث بأن بقاء العرب قليل، فلما رأيت مابنوا علمت أنهم باقون مخلدون».

وقد أَثَّرَ تخطيط هذا المسجد فى المساجد التى أُنشئت فيما بعد فى شمال إفريقية والأندلس.

وكان من أقدس واجبات الخليفة أن يَؤُمَّ الناسَ فى صلاة الجُمعة، وفى الصلوات الخمس. وقد سار على ذلك الخلفاءُ الراشدون، ثم معاوية، وعبد الملك بن مروان، وعمر بن عبد العزيز من خُلفاء بنى أمية، ولم يهتم غيرهم من الخلفاء بأن يؤمُّوا الناس فى الصلوات الخمس، واقتصروا على إمامتهم فى صلاة الجمعة.

وكان الخليفةُ فى العصر الأموى يحضر إلى المسجد مرتديًا ثيابًا بيضاء، وعمامة بيضاء مرصعة بالجواهر، ويرقى المنبر لإلقاء خطبة الجمعة، وبيده الخاتم والعصا، وهما شَارَتَا المُلْك.. وكثيرًا ما كان بعضُ الخلفاءِ الأُمويين لا يحضرون صلاة الجمعة، بل يُنيبون عنهم رئيس الحرس أو صاحبَ الشرطة[1].

مكانة مسجد دمشق العلمية والعلماء الذين تخرجوا فيه:

هذا، وقد أدى مسجد دمشق دورًا بارزًا فى نشر العلوم الإسلامية فى ربوع

(١) انظر تاريخ الإسلام السياسى والدينى، للدكتور حسن إبراهيم، ج ١ ص ٥٢٣ ـ ٥٢٧.

العالم العربى والإسلامى، وكان طُلاَّب العلم يلتفون حول أساتذتهم فى حلقات ينهلون من علمهم الصافى.

ومن العلماء الذين تخرجوا فى هذا المسجد الجامع: الإمام ابن تيمية، وشمس الدين الذهبى، وابن قيم الجوزية، والأوزاعى وغيرهم من أعلام الإسلام الذين أثروا الفكر الإسلامى بمؤلفاتهم القيمة وتراثهم الخالد الذى خَلَّفُوه لنا.

٧ ـ القيروان

القَيْرُوانُ مدينة فى تونس أنشأها عُقْبَةُ بن نافع سنة ٥٠ هـ سنة ٦٧٠م، وكانت عاصمة الأغالبة ثم الفاطميين، إلى جانب المهدية. وهى شهيرة بمسجدها. وكانت دارًا للصناعة، ومحطًا للقوافل، وسوقًا للتجارة.

عقبة بن نافع وفتح إفريقية:

كان معاوية بن حُدَيْج ـ بعد فتح كُل من سُوسَةَ وجَلُولاء وبَنزرت ـ قد رجع إلى قمونية، وبَنَى بناحية القرن مساكن وسماها قَيْرَوانًا. لكن بعد ذلك النشاط الذى بدأ فى جبهة شمال إفريقية نرى تصعيدًا لحركة الفتح فيها، وزيادة اهتمام من طرف الخليفة معاوية بن أبى سفيان بأمرها، تمثل ذلك فى إسناد قيادة حركة الفتح فى إفريقية إلى عقبة بن نافع الفهرى، الذى شارك فى غزو إفريقية منذ البداية مع عمرو بن العاص، وكسب فى هذا الميدان خبرات واسعة، وكان عمرو قد خَلفه على بَرْقَةَ عند عودته إلى الفسطاط، فظل عُقْبَة فيها يدعو الناس إلى الإسلام.

وقد جاء إسناد القيادة إلى عُقْبَةَ خطوة موفقة فى طريق فتح شمال إفريقية كله، ذلك أنه ـ لطُول إقامته فى بَرْقَة ـ وزويلة وما حولها ـ منذ فتحها فى أيام عمرو بن العاص ـ أدرك أنه لكى يستقر الأمر للمسلمين فى إفريقية لابد من بناء قاعدة ثابتة للمسلمين، ينطلقون منها فى غزواتهم ويعودون إليها، ويأمنون

فيها على الأهل والمال، فلما أسند معاوية بن أبى سفيان إليه قيادة الفتوحات فى إفريقية أرسل إليه عشرة آلاف فارس، وانضم إليه مَنْ أسلم من البربر، فكثر جَمْعُهُ، فسار حتى نزل قريبًا من سُرْت، فبلغه أن أهل وَدَّان قد نقضوا عهدهم مع بُسر بن أبى أرْطَأة الذى كان عقده معهم حين وجهه إليهم عمرو ابن العاص، ومنعوا ما كانوا اتفقوا عليه من الجزية، فوجه إليهم عقبة قسمًا من الجيش يقودهم عمر بن على القرشى، وزهير بن قيس البلَوى، وسار هو بالقسم الآخر من الجيش متجهًا إلى فَزَّان. فلما دنا منها دعاهم إلى الإسلام، فأجابوا، ثم واصل فتوحاته.

ثم شرع عُقْبَةُ فى تنفيذ الفكرة التى عزم عليها، وهى بناء مدينة تكون قاعدة للمسلمين، فقال للجنود: «إن إفريقية إذا دَخَلَها إمامٌ أجابُوه إلى الإسلام، فإذا خرج منها رَجَعَ مَنْ كَانَ أجابَ منهم لدينِ الله إلى الكفر، فأرَى لكم - يا معشر المسلمين - أن تتخذوا بها مدينة تكون عِزا للإسلام إلى آخر الدهر».

فاتفق الناس على ذلك، وأن يكون أهلُها مُرابطِين، وقالوا: «نقربُ من البحر ليتم لنا الجهاد والرباط». فقال عُقبة: «إنى أخافُ أن يطرقها صاحبُ القُسطنطينية بغتة فيهلكها، ولكن اجعلوا بينها وبين البحر ما لا يوجب فيه التقصير للصلاة - فهم مرابطون».

ولم يعجبه موضع «القيروان» الذى كان بناه معاوية بن حُدَيْج قبله، فسار والناس معه حتى أَتَوْا موضع «القَيْرَوَان» اليوم، وكان واديًا كثير الشجر، تأوى إليه الهوام والوحوش والسباع، وأَمَرَ الناسَ بالتنقية والخطط، وركز رمحه وقال: «هذا قيروانكم»، وأمر ببناء المدينة فُبنيت، وبَنَى المسجد الجَامعَ بها، ويعرف بجامع عقبة، وبَنَى الناس مساجدهم ومساكنهم، وتم أمرها سنة ٥٥ هـ، وسكنها الناسُ.

وفى أثناء بناء المدينة الذى استغرق خمسة أعوام - من سنة ٥٠ هـ إلى سنة

٥٥ هـ ـ كان عقبة بن نافع يغزو، ويرسل السرايا، ويدعو الناس إلى الإسلام، فدخل كثير من البربر فى الإسلام، واتسعت خطة المسلمين، وقوى جَنانُ مَنْ هناك من الجنود بمدينة القيروان، وأَمِنُوا واطمأنوا على المُقَام، فثبتَ الإسلام فيها. هذا، ولم تقم القيروان بدور كبير فى فتح شمال إفريقية فحسب، وإنما قامت بدور عظيم فى نشر الإسلام فى المغرب والأندلس أيضًا، وأصبحت مركزًا من أهم مراكز الحضارة الإسلامية.

جامع الزيتونة:

وفى تونس أيضًا أنشأ المسلمون جامع الزيتونة الذى تم بناؤه سنة ١٤٠ هـ. ومنذ إنشاء ذلك المسجد ابتدأت الدراسة فيه على شكل حلقات، وظلت تتطور مع الزمن حتى أخذت نظام الدراسة الجامعية الحالية، ويُدرس به الآن جميع العلوم الدينية والدنيوية التى يتطلبها العصر الحديث[1].

* * *

مما سبق تتضح لنا أصالة رسالة المسجد، وأنه كفيل بتقديم الزاد لكافة الاتجاهات فى الحياة الإنسانية... إن الذى أصاب المجتمع الإسلامى بسبب تفكك المسلمين وتناحرهم وتنابذهم يمكن علاجه، وذلك بالاعتصام بكتاب الله والرجوع إليه، قال الله تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾[2].

ويقول رسول الله ﷺ: «يُوشِكُ أَنْ تَتَدَاعَى عَلَيْكُمُ الأُمَمُ كَما تَتَدَاعَى الأَكَلَةُ إلى قَصْعَتِهَا، وَلَيَنْزَعَنَّ اللهُ مِنْ قُلُوب أَعْدَائِكُمُ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ، وَلَيَقْذِفَنَّ فى قُلُوبِكُمُ الْوَهْنَ. قَالُوا: وَمَا الْوَهْنُ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: حُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَة

(١) انظر: رسالة المسجد والإمام، للأستاذ محمود السعيد ص ٧٢.

(٢) سورة آل عمران ـ من الآية ١٠٣.

الْمَوْتِ قِيلَ: أَوَ مِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَارَسُولَ الله؟ قَالَ: لا، وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ».

ومادام المسجد يشكل كل هذا، وهو أصل قوى فى وحدة المسلمين، فلا بد لنا أن نتعرف بعض الدروس المستفادة التى درجت فى رحابه وتعهدها النبى ﷺ وصحابته وأتباعه بالرى حتى بسقت شجرة الإيمان وتأصلت، ووقف التاريخ يرقب هذا، ويسجل على جبين الزمن بحروف من نور نمو هذه الشجرة حتى أشرقت الدنيا بها، واستضاءت بهذا الضياء العظيم، وأول درس نقف أمامه هو:

الدرس الأول هو تصحيح العقيدة:

كل أمه تريد لنفسها السعادة عليها أن تُهَيِّئَ الجو المناسب لتربية النَّشْءِ على العقيدة الصحيحة التى هى - نظرية شاملة لتفسير الوجود الذى يحيا فيه الإنسان والنظرية الصحيحة توصل الإنسان إلى الإيمان بخالق الكون على هذا النسق العجيب الذى لم يسبق بمثيل، هذا الإله ﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾[1]، وهو ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾[2].

وهو - سبحانه - متصف بكل كمالٍ يليق بذاته.. إن أى عاقل لا يقول إنَّ الكون جاء هكذا من تلقاء نفسه؛ لأن مافيه من نظام مُحْكَم وقوانين ثابتة يدل على قُدْرَة قادرٍ يُدَبِّرُ الكونَ ويُسَخِّرُ مافيه بحكمة و ﴿يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾[3].

والشمس والقمر والنجوم والليل والنهار سَخَّرَهَا - سبحانه - وأجراها بإرادته

---

(١) سورة الأنعام - من الآية ١٠٣.

(٢) سورة الشورى - من الآية ١١.

(٣) سورة فاطر - من الآية ٤١.

وحكمته: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾[1].

إن المجتمع الذى ينشأ أفراده على العقيدة الصحيحة تكون لديهم الثقة فى أنفسهم، والقدرة على التحرك؛ لأنهم يتحركون معتمدين على القدرة العالية التى لا تُغْلَب، ولا يخافون من شىء؛ لأنهم يعملون لما فيه رضاء الخالق جَلَّ وعلا، ومنفعة المخلوق. ويتعلمون ما ينفعهم ويدفع بهم إلى التقدم والازدهار.

إن أصحاب العقائد فى حياتهم بَنَّاءُون؛ لأنهم يعلمون أنهم خُلَفاء الله فى الأرض، هم له خاشعون ولعظمته ساجدون عن طواعية؛ لأنهم نظروا إلى العالم العلوى فرأوه مسخرًا تحت سُلطان القدرة، ثم نظروا إلى العالم السفلى - الأرض - فرأوا هذا العالم كذلك مقيدًا بنسب معينة من الضوء والحرارة والضغط الهوائى، وكذلك الكائنات التى تعيش على ظهر الأرض، فرأوها خاضعة لقانون النمو والتقدم والهرم ثم الموت، والنبات هو الآخر يجرى عليه ما يجرى على الكائنات الحية الأخرى، وهكذا، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا﴾[2].

ومن هنا كان خضوع المتدين لمعبوده خضوعًا ينم عن الحب والتمجيد والتقديس والتنزيه. إن هذا الخضوع يخلق الأمل فى النفس المؤمنة، ويبعد اليأس، وينير القلب ويرققه، ويقوى العزيمة، ويسمو بالإنسان من حيز المادة الصماء إلى الآفاق الرحبة، والروحانية الطاهرة، والأمل المشرق، وهم كما وصفهم الحق سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا

(١) سورة يس - الآية ٤٠.

(٢) سورة مريم - الآيات من ٩٣ - ٩٥.

﴿وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ۝٦٠ أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾[1].

إن العقيدة الصحيحة منهاج إلهى خالد للحياة، وضعها الله فى جميع كتبه التى أرسل بها الرسل، من آدم عليه السلام وكل من جاء بعده من الرسل، إلى أن ختموا بالنبى الخاتم لجميع الأنبياء سيدنا محمد ﷺ، ولو أدرك الناس حقيقة هذا المنهج الإلهى الذى يعالج مشاكل الإنسان المعقد الرغائب لعلموا أن سعادة هذا الإنسان لن تتم إلا فى ظل عقيده التوحيد، وأنه لم يأمن فى مساره الطويل على ظهر الأرض إلا بتمسُّكه بتعاليم تلك العقيدة التى تصله باللّه ربًا خالقًا قادرًا عالمًا، وتلك نزعة فطرية لازمت الإنسان من بداية خلقه ونموه، والإنسان لو عاش بلا دين لحطَّمَ نفسه بنفسه؛ لأن ما يبنيه اليوم يهدمه غدًا، حيث لا ضابط ولا رابط ولا وازع، أما إذا كان الدين والعقيدة فهناك الضبط المحدد، والمنهج الواضح؛ ذلك لأن المؤمن يعلم أنه لم يُخْلَق للدنيا فقط، ولم يخلق للأخرة فقط، وإنما خُلِقَ ليعمل فى الدنيَا زارعًا للآخرة، حيث سينتقل إليها فيجد هناك ما قدمت يداه: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ، وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾[2].

إن الكرامة للفرد فى الآخرة سببها عمل صالح مبنى على يقين ثابت، وسعى نظيف، يضمن حقوق الناس فى أُلفة ومحبة وتعاون وعفة تنير جوانب الحياة. وقوام العقيدة الصحيحة ثلاثة: إيمان، وإسلام، وإحسان، فالإيمان هو التصديق القلبى بكل ما جاء عن سيدنا محمد ﷺ، والاعتقاد الصحيح بكل ما أخبر به عن الله اعتقادًا جازمًا لا يقبل الشك.

والإسلام هو: الانقياد والاستسلام الظاهرى لتعاليم الإسلام التى بَيَّنَهَا الله

---

(١) سورة المؤمنون ـ الآيات من ٥٧ ـ ٦١.

(٢) سورة الزلزلة ـ الآيتان: ٧ و ٨.

فى القرآن الكريم، وعلى لسان رسوله العظيم. وقد بين الرسول ﷺ ذلك فى الحديث الصحيح الذى رواه البخارى عن عمر - رضى الله عنه - قال: «بَيْنَما نَحْن جُلُوسٌ عِنْدَ رَسُول الله ﷺ ذَاتَ يَوْم إذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَديدُ بَيَاض الثِّيَاب، شَدِيدُ سَوَاد الشَّعْر، لايُرى عَلَيْه أثَرُ السَّفَر، ولاَ يَعْرفُهُ منَّا أَحَدٌ حَتَّى جَلَسَ إلى النَّبىِّ ﷺ فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْه إلى رُكْبَتَيْه، ووَضَعَ كَفَّيْه عَلَى فَخذيْه وقَالَ: يا مُحَمَّد، أَخْبرْنى عَنِ الإسْلاَم. فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: الإسْلاَمُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لا إلـه إلاّ اللهُ، وأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله، وَتُقيمَ الصَّلاَةَ، وتُؤتىَ الزَّكَاةَ، وَتَصومَ رَمَضَانَ، وتَحُجَّ الْبَيْتَ إن اسْتَطَعْتَ إلَيه سَبيلاً. قَالَ: صَدَقْتَ، فَعَجبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ. قَالَ: فَأَخْبرْنى عَن الإيمَان. قَالَ: أَنْ تُؤمنَ بالله وَمَلاَئكته وكُتُبه وَرُسُله وَالْيَوْم الآخر، وتُؤْمنَ بالْقَدَر خَيْره وَشَرِّه. قَالَ: صَدَقْتَ، قَالَ: فَأَخْبرْنى عَن الإحْسَان قَالَ: أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإنْ لَمْ تكُنْ تَراهُ فَإنَّهُ يراكَ، قَالَ: فَأَخْبرْنى عَن السَّاعَة. قَالَ: ما المسئولُ عنها بأَعْلَمَ منَ السَّائل، قال: فَأَخْبرْنى عَنْ أَمَارَاتها، قَالَ: أنْ تَلدَ الأَمَةُ رَبَّتَها وأَنْ تَرَى الحفاة العُرَاةَ العَالَة رعَاءَ الشَّاة يَتَطَاوَلُونَ فى الْبُنْيَان ثُمَّ انْطَلَق، فلبثتُ مَليًا، ثم قَالَ: يَاعُمَرُ: أَتَدْرى مَن السَّائل؟ قُلْتُ: الله وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: فَإنَّهُ جُبْريلُ أَتَاكُم يُعَلِّمُكُم دينكُمْ».

هذه الدعائم الثلاثة تقوى العقيدة، وتصحح مسار الإنسان فى دنياه؛ لهذا فإن الجيل الذى تربى على هذه المبادئ ونشأ عليها كان قوى الإيمان بالله، شديد الحرص على خدمة الأمة، عفيف اللسان، نظيف اليد، حسن العمل، مجدا مجتهدًا، كان الواحد منهم يراقب ربه قبل أن يراقب أهله، يخاف الله قبل أن يخاف من رئيسه.

ونقف أمام بعض العناصر التى تَرَبَّتْ فى المدرسة المحمدية وكانوا نماذج حية فى دنيا الناس، يحدثنا التاريخ: أنه لما بلغ الجيش الإسلامى وادى الأردن، وعسكر أبو عبيدة فى مكان هناك، كتب الأهالى المسيحيون فى هذه البلاد إلى العرب يقولون: يا معشر المسلمين، أنتم أحب إلينا من الروم وإن كانوا على

ديننا، أنتم أَوْفَى لنا، وأَرْأَفُ بِنَا، وأكَفُّ عن ظُلمنا، وأحسن ولاية علينا، ولكنهم غلبونا على أمرنا وعلى منازلنا... ثم تمضى الرواية: لما حشد الإمبراطور - هرقل - جيشًا عظيمًا ليصد قوات المسلمين، كان لزامًا على المسلمين - نتيجة لما حدث - أن ركزوا كل نشاطهم فى المعركة التى أحدقت بهم، حينئذ كتب أبو عبيدة بن الجراح إلى عمال المدن المفتوحة فى الشام يأمرهم بأن يردوا عليهم ما جُبِىَ من الجزية من هذه المدن. وكتب إلى الناس يقول: إنما رددنا عليكم أموالكم لأنه بلغنا ما جمع لنا من الجموع، وإنكم قد اشترطتم علينا أن نمنعكم، وإنَّا لا نقدر على ذلك، فرددنا عليكم ما أخذنا منكم، ونحن على الشرط، وما كتبنا بيننا وبينكم إنْ نَصَرَنَا الله عليهم.

لقد رُدَّتْ مبالغُ طائلة من مال الدولة، وكان هذا المنهج الكريم فى المعاملة الحسنة سببًا فى أن المسيحيين دعوا بالبركة لرؤساء المسلمين وقالوا: رَدَّكُم الله علينا، ونصركم على الروم، فلو كانوا هم لم يردوا علينا شيئًا وأخذوا كل شىء بقى لنا. تأمل هذا المسلك الحسن من المسلمين أصحاب العقيدة، كيف يتعاملون مع الناس، حتى ولو كانوا غير مسلمين؛ لأن قِيمَ الأخلاق المستمدَّة من عقيدتهم لاتتجزأ.. إن الذين يتمسكون ببعض الأخلاق ويتركون البعض نعى عليهم القرآن الكريم هذا المسلك وقال: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[1]

إن السعادة الحقيقية هى فى يقظة الضمير، وإرضاء الضمير بالعمل الخير الذى يصل الإنسان بالله عبادة، وبالناس علاقة طيبة وخُلُقًا كريمًا، ونبى الإسلام - صلوات الله وصلامه عليه - كان ينمى هذا المسلك الكريم فى نفوس أصحابه بما يضرب لهم من أمثله لأتباع الدين فى كل زمان، حتى تنشط للخير هممهم؛ لذلك ورد عن رسول الله ﷺ أنه قالّ: «اشترى رجل من رجل عقاراً

(١) سورة البقرة - من الآية ٨٥.

له، فوجد الذى اشترى العقارَ فى عقاره جَرَّةً فيها ذَهَبٌ، فقال الذى اشترى العقار منه: خُذْ ذَهَبَكَ عَنِّى إنما اشتريتُ منكَ الأرض ولم أبْتَعْ مِنْكَ الذَّهَبَ. فَقَالَ الآخَرُ: إنما بِعْتُكَ الأرضَ وما فيها. فَتَحَاكَما إلى رجل، فقال الذى تحاكما إليه: أَلَكُمَا ولد؟ فقال أحدهما: لى غلام، وقال الآخر: لى جارية. فقال: الحكم أَنْكِحُوا الغُلَامَ الجارية، وأَنْفِقُوا على أنفسكم منه، وتَصَدَّقَا».

إن هذه القناعة والعفة نتيجة الإيمان الحى فى النفوس، والإيثار الناتج بسبب العقيدة الصحيحة، وهذا اللون الممتاز من البشر هم الذين تربوا فى مدارس الإيمان، وعلى يد الهداة المصلحين، وبين جدران المساجد ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ۝٣٦ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾[1].

وهذا اللون من المسلك الطيب والسيرة الحسنة تحلى به الأحرار والعبيد، يروى كُتَّابُ السِّيَر: أَنَّ عمر بن الخطاب خرج يومًا ومعه عبد الله بن دينار، فوقفا على راعٍ لغنم، فقال عمر: بعْنى شَاةً يا راعى الغنم فقال الراعى: إنِّى مملوكٌ، قال عمر ـ اختبارًا له ـ: قُلْ لِسَيِّدِكَ: «أَكَلَهَا الذِّئْبُ» فَرَدَّ الراعى. قائلا: فأين الله؟ فَبَكَى عُمر، ثم تعرف على سيد العبد واشتراه منه وأعتقه، وقال له: أَمَانَتُكَ أعْتقتكَ فى الدنيا، وأرجو أن تعتقك فى الآخرة.

إن أى مجتمع لا يسعده كثرة القوانين وإصدار القرارات، وتعدد جهات السلطة، ورجال الشرطة، ولكن سعادة المجتمع فى يقظة ضمير أفراده، وعفة أبنائه، ونزاهة مواطنيه؛ لأن الغالبية العظمى تستطيع الفرار من قَبْضَة القانون والإفْلَات من رجال الشرطة، ويستخفون من الأعين، ولكنهم لا يستطيعون الهرب من الضمير ويقظته؛ لأن صاحب العقيدة يصبح ويمسى مراقبًا لله، محاسبًا لنفسه، متيقظًا لأمره، لا يَدَّعِى ما ليس له، ولا يجحد ما عليه، ولا

(١) سورة النور ـ الآيتان: ٣٦ و ٣٧.

يفعل فى السر ما يستحى منه فى العلانية، ولا يعمل عملاً فى يومه يخاف من المساءلة عليه غدًا، ولسان حاله يردد مع الشاعر:

إذَا ما خَلَوْتَ الدَّهْرَ يَوْمًا فلا تَقُلْ خَلَوْتُ، ولَكِنْ قُلْ عَلَيَّ رَقِيبُ
ولاَ تَحْسَبَنَّ اللهَ يَغْفُلُ سَاعَةً ولا أَنَّ ما تُخْفِيهِ عَنْهُ يَغِيبُ

إن المجتمع لا يستغنى عن رجال الأمن وسَنِّ القوانين، ولكنه مع ذلك لابد من وجود قُلُوبٍ يقظة، ونُفُوس حية؛ لأنه كما قال الشاعر:

لَنْ يَصْلُحَ القَانُونُ فِينَا رَادِعًا حَتَّى نَكُونَ ذَوِى ضَمَائِرَ تَرْدَعُ

ونقف الآن أمام نموذج فريد فى التربية الخلقية الناتجة عن يقظة الضمير الحى، هذا النموذج تمثله امرأة غاب عنها زوجها فترة طويلة من الزمن؛ لأنه كان فى الجيش، فخيم عليها الليل بظلامه، وهجمت عليها الهواجس، وثار فى عروقها دم الأنوثة، وانطلق صوت الغريزة من داخلها، ولكنَّ الإيمان والضمير حجزاها عن فِعْلِ ما لا يليق، والقصة كما جاءت فى تفسير ابن كثير: أن عمر ابن الخطاب خرج من الليل فسمع امرأة تقول:

تَطاوَلَ هَذَا اللَّيْلُ وَازْوَرَّ جَانِبُهْ وَأَرَّقَنِى أنْ لاخَلِيلَ أُلاَعِبُهْ
أُلاَعِبُهُ طَوْرًا وَطَوْرًا كَأَنَّمَا بَدَا قَمَرًا فى ظُلْمَةِ اللَّيْلِ حَاجِبُهْ
يُسَرُّ بِهِ مَنْ كَانَ يَلْهُو بِقُرْبِه لَطِيفُ الحشَا لا يجتويه أَقَارِبُهْ
فَوَ اللهِ لَوْلاَ اللهُ لا شَىْءَ غَيْرُهُ لَزُلْزِلَ مِنْ هَذَا السَّرِيرِ جَوَانِبُهْ
وَلَكِنَّنِى أَخْشَى رَقِيبًا مُوَكَّلاً بِأَنْفَاسِنَا لا يَفْتُرُ الدَّهْرَ كَاتِبُهْ
مَخَافَةَ رَبِّى والْحَيَاءُ يَصُدُّنِى وَإِكْرَامَ بَعْلِى أَنْ تُنَالَ مَرَاكِبُهْ

إن المرأة بعد أن ثار فى عرقها دم الأنوثة خافت ربها، وأكرمت بعلها، فلم تسمح لنفسها بفعل شىء يخدش حياءها، ويهدر كرامة زوجها، ويدنس

شرفها؛ لهذا فإن الدرس الأول هو تصحيح العقيدة، والاتجاه إلى تربية الضمير؛ ليكون الإنسان فى مراقبة دائمة لله، يحسن بذلك العمل، ويجود الصنعة، ويخلص فى أداء الواجب المنوط به، ولا يتهرب من المسئولية مهما كانت. والإنسان بهذه الصفة صاحب مروءة وشهامة ونجدة، يمد يد العون والمساعدة للغير ـ أيا كان ـ بوازع من الضمير والمروءة.

حدث أن شابًا كان يركب جملاً، ولما أخذ منه التعب كل مأخذ نزل فى مكان به الشجر ليستريح، واستلقى الشاب تحت شجرة وراح فى نوم عميق، فى حين أخذ الجَمَلُ يبحث عن العشب ويتتبع أثره إلى أن دخل حديقة وعبث بأشجارها، فطرده البستانى منها، ولكن الجمل عاد مرة أخرى، فضربه البستانى بالعصا، فوقع قتيلا، وكان الشاب قد استيقظ، فرأى أن جمله قد قتل، وبدأ البستانى يقص عليه القصة بأن جَمَلَهُ عاثَ فى الحديقة وأفسد فيها، وأنه طرده فعاد، وطرده فعاد، وأنه لم يكن يريد قتله. ونظرًا لأن الشاب غريب وينتقل عليه لقضاء مصالحه عَزَّ عليه ذلك، وصاح فى البستانى: لمَ قتلت هذا الجمل؟ وهَزَّهُ هزًا عنيفًا، فخر البستانى صريعًا، ومات هو الآخر، ووقف الشاب مشدوهًا؛ لأنه لم يكن يريد قتله؛ لأنه يعلم أن كل المسلم على المسلم حرام: دمه وماله وعرضه. ولما علم أولاد البستانى القتيل بأن هذا الشاب قتل أباهم توجهوا به إلى عمر بن الخطاب الحاكم؛ لأن أولاد القتيل لا يجوز أن يأخذوا بالثأر إلا بعد رفع الموضوع إلى الحاكم، حتى لا تكون الأمور فوضى، وعمر هو الحاكم العادل، ووقف الجميع فى حضرته، وقصوا عليه القصة، وبعد أن سمع القصة قال للشاب: ماذا تقول؟ قال الشاب: أنا مقر بجريمتى، معترف بخطئى، وتمت محاكمة الشاب فى المسجد؛ لأن العدالة الحقة تمت فى رحاب المجتمع كله، وحكم على الشاب بالإعدام؛ لأن الحق سبحانه يقول: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[1].

(١) سورة البقرة ـ الآية ١٧٩.

ومَنْ قَتَل يُقْتَل. ورضى الشاب بالحُكم، ولم يتهرب، ولم يحاول أن يدافع بالباطل عن نفسه، ولكنه وقف أمام الجميع، وقال: يا عمر، هل لك أن تفسح لى صدرك وأن تعاوننى على تحقيق آخر أمنية قبل أن أفارق الدنيا؟ إننى رجل غريب، وليس هنا أهلى وخلاَّنى، وعندى ودائع كثيرة للناس أريد أداءها لهم، وكلمة شَرَف منِّى أننى سأحضر بعد رد الودائع لأصحابها، وأداء الأمانات لأهلها؛ لأننى لو متُّ فى هذه الديار فلن تُرَدَّ الودائع، وسوف أُحَاسَبُ عليها أمام ربى فى يومٍ لا أملك فيه درهمًا ولا دينارًا.

قالَ عمر رضى الله عنه: أيها الشاب، إن الحق ما تقول، لكن لابد لَكَ من ضامن يضمن عودتك. فقال الشاب: أنا رجل غريب، وليس لى هنا معارف، فهل من ضامن لى أيها الناس؟!

إن الذى يضمن هذا الشاب الغريب الذى يحتمل أنه لن يعود ويهرب مقتول، ووجم الجميع، وسادهم صمت رهيب، وفجأة نهض من ركن المسجد شيخ كبير يصيح: أنا ضامنٌ لهذا الشاب! ونظر الجميع إليه، فإذا به الصحابى الجليل - أبو ذر الغفارى - رضى الله تعالى عنه - وعلى أثر إعلان أبى ذر لضمان الشاب أُطْلِقَ سَراحُهُ، وتوجه إلى أسرته لتوديعها ورد الأمانات التى كانت عنده، وبعد أن وَدَّعَ الأَهْلَ وَرَدَّ الأمانات توجه إلى المدينة لتوقيع القصاص عليه.

وفى اليوم المحدد لتنفيذ القصاص تجمع الناس فى المسجد وهم يتطلعون إلى أبى ذر الذى جلس هادئًا، وخاف عليه الناس، إنه لا ذنب له ولا جريمة. وانتصف النهار ولم يعد الشاب، واقتيد أبو ذر لتنفيذ الحكم فيه؛ لأن الضامن غَارِم، فطلب أن يودع الدنيا بركعتين، وبينما هو فى الصلاة إذْ لاح فى الأفق غُبَارٌ، وتطلع الناس بأبصارهم إلى هذا الغبار، الذى انكشف بعد قليل عن الشاب وهو يسرع بجمله، إنه جاء وفاءً بعهده، وبَرًا بوعده، وما إنْ وصل حتى اعتذر عن هذا التأخير غير الـمُتَعَمَّد.

لقد تَعَجَّبَ الناس لهذا الوفاء النادر، شاب يأتى من بلاد بعيدة ليموت وكان فى إمكانه أن يهرب، خاصة أنه ليس معه شرطى، وليس فى يديه حديد، ولكن لا، إن الضمير فى نفسه أقوى من رجل شرطة خلف ظهره، إن يقظة الضمير أقوى من حديد فى يديه، ومع هذا سأله عمر: ما الذى جعلك تبر بوعدك وتحضر؟ فقال الشاب: يأ أمير المؤمنين، إن الشرف هو كل ما أستطيع أن أتقدم به، وإن المسلم لاينكث بعهده، فرد الخليفة: إن الحق ما تقول.

إن احترام العهد هو واجب على كل مسلم، فالشاب الذى جاء ليقدم رقبته حسبما أمر الخليفة، وتطبيقًا للقصاص، كان محل احترام وتقدير من الجميع، لوفائه والتزامه بكلمة الشرف التى قطعها على نفسه، ثم هذا أبو ذر ـ رضى الله عنه ـ الذى ضَرَبَ مثلاً رائعًا فى التضحية، ولذلك سأله عمر ـ رضى الله تعالى عنه ـ: ما الذى دَفَعكَ إلى ضمانه وأنت لا تعرفه وقد خاطرت بحياتك، فأجاب أبو ذر ـ رضى الله تعالى عنه ـ: إننى لما رأيتُ الشاب غريبًا وهو فى محنة شديدة ويتمنى أن يجد المعين له فى تلك اللحظة، رأيتُ من المخجل ألاَّ يجد من يساعده من المسلمين، والواجب يفرض على المسلمين أن يتعاونوا، خاصة فى وقت المحنة، فتقدمت لأكون الضامن برضا نفسى، ووازع من إيمانى.

هذه الكلمات من أبى ذر ـ رضى الله تعالى عنه ـ حركت مشاعر الحاضرين، فالتفت الخليفة إلى الشاب مرة ثانية وقال له: وما الذى دَفَعك للحضور وجعلك تبر بوعدك وكان فى إمكانك أن تهرب فى الصحراء؟ قال الشاب: يا أمير المؤمنين، الله يعلم كم ذرفت أسرتى من الدموع، وتعلَّق بى أولادى، وناشدنى أصحابى عدم العودة إلى هنا، غير أننى كنت أعلم أن اللّه يرانى وسوف يحاسبنى غدًا ويقول لى: دنست نفسك ولم تلتزم بكلمة الشرف وكنت من الخائنين؛ لهذا جئت وأنا مطمئن طامع فى عفو ربى ومغفرته، وهذا أحسن لى من كل شىء، أما أولادى فلهم الله، وهم وديعة وأمانة عند من لاتضيع عنده الودائع.

ولقد حركت هذه الكلمات مشاعر الناس، وهزت قلوب الحاضرين، وملأت نفوسهم حماسة، ثم إنهم دَعَوْا لهذا الشاب الذى تمسك بكلمة الشرف ووفى بها برغم المحاطر وما ينتظره من إزهاق روحه. عندئذ تقدم أبناء القتيل وقد تحركت فيهم عوامل النخوة والشهامة، وهتفوا من أعماق قلوبهم: يا أمير المؤمنين، لقد قتل هذا الشاب والدنا وصاحبناه إلى ساحة العدل والقضاء طالبين القصاص، ولكن بَدَا لنا أن الصَّفْحَ خَيْرٌ، وكما قال ربنا جل وعَلاَ: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾[1]؟

وبعد مارأينا وما سمعنا عَفَوْنَا وصَفَحْنَا، لعل الله يغفر لأبينا ولنا، وما عند اللّه خير وأبقى.. وقام الجميع إلى الشاب الوفى يهنئونه ويدعون له بالخير، وأبدى الجميع روحًا طيبة، حامدين اللّه شاكرين فضله أن هداهم للإيمان واستنقذهم به من الكفر والفساد وأخذ الثأر الذى هو من أبشع الجرائم فى كل المجتمعات، وصدق اللّه العظيم إذ يقول: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا﴾[2].

ونحن نرى أن صحة العقيدة تنمى عواطف الخير فى نفوس الناس أجمعين، وصحة العقيدة معناها أن تبعد عن نفسك أى تفكير فى شخص يملك ضَرَّكَ أو نفعك، أو يملك حياتك أو التحكم فى رزقك، إن الذى يملك هذا هو الله رب العالمين. وتأمل فى معانى تلك الآيات: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا

(١) سورة النور ــ من الآية ٢٢.

(٢) سورة الإسراء ـ من الآية ٣٣.

ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴾[1].

وتأمل فى قول الحق ـ سبحانه ـ: ﴿ إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾[2].

لهذا فإنه يجدر بكل شخص أن يصفى قلبه، وأن يملأه بحب الله تعالى؛ لأنه رب العالمين، ومالك الملك، يؤتى الملك من يشاء، وينزع الملك ممن يشاء، ويعز من يشاء، ويذل من يشاء، وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو، ويعلم ما فى البر والبحر، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها، ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين، هو سبحانه الرازق، وما من دابة فى الأرض إلا على اللّه رزقها، ويعلم مستقرها ومستودعها، إن العقيدة الصحيحة تُبْنَى على الاعتراف باللّه الواحد الأحد، والإيمان به بأنه الله الذى لا إلـه إلا هو، عالم الغيب والشهادة. وعلى الإنسان أن يُكثر من ترديد لفظ الإلـه على لسانه ليحيا فى ظل العقيدة سليم الفطرة، نقى الضمير، يخلص العمل، ويجود الصنعة.

والإنسان يبنى من الداخل أولا على هذه العقيدة، وهذا ما فعله رسول الله ﷺ طوال مدة الوحى المكى، أى مدة ثلاث عشرة سنة، يبنى الإنسان الذى به يغزو العالم غدا؛ لهذا كان يردد على أذن أصحابه: «مَنْ قَالَ لا إلـه إلاَّ اللهُ مُخْلِصًا دَخَلَ الجَنَّةَ» قيل: ومَا إِخْلاَصُهَا يا رَسُولَ الله؟ قَالَ: «أن تحجزه عن مَحارِمِ الله»، رواه الطبرانى، ويقول عليه الصلاة والسلام، فيما رواه أبو سعيد الخدرى ـ رضى الله تعالى عنه ـ: «قال موسى عليه السلام: يارَبِّ، عَلِّمْنى شَيْئًا

(١) سورة الأنعام ـ الآيات من ٩٥ ـ ٩٨.

(٢) سورة الجاثية ـ الآيات من ٣ ـ ٥.

أَذْكُرُكَ به وأَدْعُوكَ به: قَالَ: لا إلـه إلاَّ اللهُ. قال: يَارَبِّ، كُلُّ عِبَادِكَ يَقُولُ هذا، إنَّمَا أُرِيدُ شَيْئًا تَخُصُّنِي بِهِ. قَالَ: يا مُوسَى لَوْ أَنَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعَ، والأَرَضِينَ السَّبْعَ فى كِفَّةٍ، ولا إلـه إلا الله فى كِفَّة، مَالَتْ بِهِم لا إلـه إلا الله». رواه النسائى.

وكان جماعة مع رسول الله ﷺ، فقال لهم: «هَلْ فِيكُمْ غَرِيبٌ؟ قالوا: لا يارَسُولَ الله، فَأَمَرَ بِغَلْقِ البَابِ وَقَالَ: ارْفَعُوا أَيْدِيكُم وقُولُوا: لاَ إلـه إلاَّ اللهُ، فَرَفَعْنَا أَيْدِينَا سَاعَةً، ثُمَّ قَالَ: الحمدُ لله، اللَّهُمَّ إنَّكَ بَعَثْتَنِى بِهَذِه الْكَلِمَةِ، وَأَمَرْتَنِى بِهَا، وَوَعَدْتَنِى عليها الجَنَّةَ، وأنتَ لا تُخْلِفُ الميعادَ، ثُمَّ قال: أَبْشِرُوا، فَإِنَّ اللهَ غَفَرَ لَكُم». رواه الإمام أحمد.

وقد قال النبى - صلى الله عليه وسلم - لأصحابه: «جَدِّدُوا إيمانَكُم» قِيلَ: يارَسُولَ الله، وكَيْفَ نُجَدِّدُ إيمانَنَا؟ قَالَ: «أَكْثِرُوا مِنْ قَوْلِ: لا إلـه إلاَّ الله».

بهذا المنهج التربوى نَشَّأَ النبىُّ ﷺ أصْحَابَهُ على العقيدة التى شَبَّ عليها الجميعُ، وتمسك بها كل فرد، فعاشوا فى دنيا الناس وقلوبهم موصولة بالسماء، وكان الواحد منهم يهتف من أعماق قلبه:

وممَّا زَادَنِى شَرَفًا وَتِيهًا ... وَكِدْتُ بِأَخْمَصِى أَطَأُ الثُّرَيَّا[1]

دُخُولِى تَحْتَ قَوْلِكَ يا عِبَادِى ... وَأَنْ صَيَّرْتَ أَحْمَدَ لِى نَبِيًّا

إن من يتربى على تلك العقيدة الصحيحة ويسلم وجهه إلى الله وهو محسن فى عمله مخلص فى عبادته، مُنيب لله، مُتَخَلِّقٌ بالأخلاق الفاضلة، فقد اسْتَمْسَكَ بالعُرْوَةِ الوُثْقَى، يذهب الخوفُ عن نفسه، ويثبت قلبه، وتهدأ أعصابه، ويمشى بين الناس رابط الجأش، مطمئن النفس؛ لهذا نصيح فى شبابنا: إنَّ العقيدة سلاح قوى، فتسلَّحُوا بها، وتغلَّبُوا بها على مشاكل

(١) الأخْمص: باطن القدم. والثريا: مجموعة من النجوم فى صورة الثور، وكلمة النجم عَلَمٌ عليها.

المجتمع، تسعدوا سعادة عظيمة، وتستريحوا راحة توصلكم إلى الهناءة والاستقرار.

الدرس الثانى هو القرآن الكريم:

هو كتاب الله المنزل من علياء السماء بواسطة سيدنا جبريل على قلب سيدنا محمد بلسان عربى مبين. والعرب هم أهل فصاحة وبلاغة وبيان، وكان لسانهم العربى فى أعلى قمة البيان، وقد نزل القرآن الكريم بِلُغَتِهِمْ، وتحدَّاهم أن يأتوا بمثله، فعجزوا، فتدرج معهم فى أقل، فعجزوا، ثم قال لهم: فَأْتُوا بأقلِّ سُورة، فعجزوا فسجل عليهم ذلك العجز. وقال الله سبحانه: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾[1].

وقد جاء القرآن الكريم بلغه قريش ـ أفصح لغات العرب ـ وما إن نزل القرآن حتى ملأ الخافقَيْنِ علمًا، وانتقل العرب بفضله من جهل إلى علم. لقد كانوا قبل نزوله فى ضلال مبين، كان الجهل قد خيم على عقولهم. وكانوا فى فرقة دائمة، فما إن تنزلت آيات السماء حتى عَمَّ فجاج الأرض نورًا وإشراقًا. لقد رسم لهم معالم الحياة الفاضلة، فجمعهم على الحب إخوانًا فى الله، وألف بين قلوبهم، ووحَّد كلمتهم، وعمهم الرشاد، وصاروا على الحق أعوانًا، بعد أن زال مارَانَ على أفئدتهم من جهل، لقد أصبحوا بفضله وقد غمرهم السلام والمحبة، والأمن بدل البغضاء، والعداوة، والخوف، والاضطراب.

لقد كان لِسُمُوِّ المعنى الذى يهدف القرآن إليه، وشرف الغرض الذى يدعو إليه، وصفاء الحكمة التى أبرزها، ومراعاة مقتضى الحال، ما جعل العرب يعترفون بأنه فى الذروة العالية فوق كلام البشر، بل لن يتطاول متطاول إلى

---

(١) سورة الإسراء ـ الآية ٨٨.

مُجاراة هذا الأسلوب. إن رجلاً كالوليد وهو عربى أصيل، وله ذوق خاص فى الحكم على بلاغة البلغاء - عند سماعه لقول الله سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾[1].

هزت مشاعره تلك البلاغة الفائقة، فقال برغم شركه وعناده: «والله إنَّ له لَحلاَوَةً، وإنَّ عليه لَطَلاوَة، وإنَّ أَعْلاهُ لَمُثْمِرٌ، وَإِنَّ أسْفَلَهُ لَمُغْدِقٌ، وَمَا يَقُولَ هَذَا بَشَرٌ».

إن هذا القرآن وإن كان سَماوىَّ المطلع، علوىَّ المتنزل فإن من قرأ فيه كأنما يقرأ طوية نفسه الطاهرة، ومن استمع إليه كأنما يسمع همس خاطره النقى، وهذا ما نلحظه من قصة إسلام عمر بن الخطاب، الذى كان من أشد الكفار مجاهرة بالعداوة للنبى ﷺ، ومع هذا فإن عمر عندما سمع بإسلام أخته وزوجها ذهب إليهما والشرر يتطاير من عينيه، وقد أضمر فى قلبه أن يفتك بهما، فلما قَرَأَ سورة «طه» ذهب الغضب من نفسه، وهدأ قلبه، واستولى على فؤاده جمال ما يهدف إليه مضمون هذا الكلام، علاوة على أن هذا الأسلوب ليس فى مقدور بشر، وهذا الكلام يهدى لِلَّتى هِىَ أَقْوَمُ، فأعلن إسلامه، ودخل فى الدين، وأخلص لله، وأحب الداعية الأول حُبا مَلَكَ عليه كل ذرة فى حياته، بل إن رجلا من البدو سجد لفصاحة القرآن.

إن هذا الكتاب الذى أنزله رب العالمين وجعله للإنسانية جمعاء، له من الاعتبارات المادية والقيم الروحية ما يجعل له المكانة الأولى بين الكتب العالمية، والشرائع السماوية، والقوانين الوضعية أيًا كان واضعها، ولقد كان للتأثير الذى أحدثه فى الحياة العقلية والاجتماعية فى النوع الإنسانى كله ما أيقظ الشعور العالمى، ونهض بالبشرية إلى المستوى اللائق بها، فحدَّدَ العلاقة بين الفرد والفرد، وبين الفرد والمجتمع، وبين المجتمع والمجتمع، إن القرآن لم يَدَعْ

(١) سورة النحل - الآية ٩٠.

أصْلاً من الأصول التى تجمع بين الغايات والمقاصد المتنوعة، وتقرب بين العقائد المختلفة، وتلم شتيت النوازع النفسية، إلاَّ دعا إلى تحكيم العقل، وأمر بالانصياع إلى ما يوجبه التفكير الرشيد والنظر السديد، ويقصد القرآن من وراء ذلك إلى أن جميع قُوَى العقل تؤدى وظائفها، وأن يكون العقل فى نشاط دائم، حتى تصبح شخصية الإنسان متكاملة مدركة لكل ما حولها، فيكتسب الإنسان بعقله حصانة طبيعية تفتح له آفاق الكون المحيط به.

إن أى وسيلة لتحرير الفكر وإيقاظ العقل قد دعا إلى الأخذ بها؛ ليكون الإيمان برب الكون ناشئًا عن نظر صحيح فى الكون، عُلْوِيِّه وسُفْلِيِّه، والإنسان ـ وهو يستنتج ذلك ـ يستعين بمن حوله من أولى الأبصار، وهو ينطلق فى حياته يلتحم بالسابقين، فينهل من معارفهم، ويؤثر فى اللاحقين بنتاج عقله؛ لأنه فى مسيرته لا ينفصل عن بنى جنسه. وهذا ما أرشدنا إليه القرآن الكريم: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾[1].

ويقول الحق: ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[2].

وفى آية أخرى: ﴿ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾[3].

يقول الفيلسوف الفرنسى الكسى لوازون فى كتابه «حياة محمد»: «خلف محمد للعالم كتابًا هو آية البلاغة، وسجل الأخلاق، وكتاب مقدس، وليس بين المسائل العلمية المكتشفة حديثًا مسائل تتعارض مع الأسس الإسلامية، فالانسجام تام بين تعاليم القرآن والقوانين الطبيعية».

ويقول هرشفلد ـ « لم تنتقل أُمَّة من الهمجية والبداوة إلى الحضارة والمدنية بمثل السرعة التى انتقل بها العرب بظهور محمد، وإنما كان ذلك بفضل القرآن الكريم واعتناقهم الدين الإسلامى».

---

(١) سورة طه ـ من الآية ١١٤.

(٢) سورة يونس ـ من الآية ١٠١.

(٣) سورة الذاريات ـ الآية ٢١.

وقال أيضًا: «ليس للقرآن مثيل فى قوة إقناعه وبلاغته وتركيبه، وإليه يرجع الفضل فى ازدهار العلوم بكافة أنواعها ونواحيها فى العالم الإسلامى».

ويقول استنجاس وهيوز: «يمكننا أن نقول بكل قوة: إن القرآن الكريم أعظم كتاب فى تاريخ البشر؛ فهو يتكلم عن الله بكل جلال ووقار، فيسمو بخيال العرب المجبولين بفطرتهم على الشعر، فيخرون إلى الأذقان سُجَّدًا، ويزيدهم خشوعًا لعظمة الإله، رغبة فى رحمته، وخشية من عقابه، وإنه لَمَسَ المشاعر بلغة سهلة جزلة، لا تَكَلُّفَ فيها ولا تعقيد، عندما يؤنس الرسول ويشجعه على أداء رسالته، وعندما يقص عليه من أنباء الرسل ما فيه عبرة ومزدجر، كذلك عندما يتغلغل فى صميم الحياة الخاصة والعامة ليجعلها تتمشى مع المبادئ الأساسية التى أمر بها الدين الجديد، وهنا لا يصح أن نقيس القرآن بأى كتاب آخر من كتب الأدب من حيث عذوبة اللغة وطلاوتها، وإنما نقيسه بالثورة التى أحدثها فى نفوس المعاصرين للنبى ﷺ، فقد نفذ القرآن إلى قلوب سامعيه بكل قوة وإقناع، واجتث من ثناياها كل ما كان يتأصل فيها من وحشية، وانتزع كل همجية، فأوجد ببلاغته وبساطته أُمَّةً متمدينة راقية ناهضة، بعد أن كانت متبدية متخلفة همجية».

إن الفضل ما شهد به الأعداء، وكان من فضل الله ورحمته بالإنسانية أن جعل له من الاعتبارات المادية والقيم الروحية ما يجعل له الهيمنة على الكتب السابقة، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم

﴿بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ﴾[1].

إن هذا الكتاب ليس للعرب وحدهم، بل هو للإنسانية جمعاء، ومعجزته مستمرة وقائمة من وقت نزوله وإلى أن تقوم الساعة. إنَّ الإعجاز اللغوى والبلاغى بَهَرَ العربَ وغيرهم، وكذا تصحيح ما فى الكتب السابقة، ثم التنبؤ بأحداث ستقع مستقبلا، كحرب الروم والفُرْس، والإخبار بنصر الروم، ثم إنه معجزة للبشرية كلها، فقد كَشَفَ مسبقًا أسرارَ هذا الكون، فى وقت لم يكن يعرف المعنى الحقيقى لبعض آياته إلا بعد الوصول إلى أمور مادية ينتصر العلم بالتعرف على أسرارها، ويصل إلى مرتبة اليقين، بحيث لا تتصادم مع الحقائق الثابتة، إن آيات القرآن شاهدة ومؤكدة لهذا، وهذا من سر إعجازه الدائم، وهذا ما شهدت به الأحداث ولا تزال، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

إن هذا الكتاب الذى انتظم من العقائد الصحيحة والآداب الكثيرة والأخلاق الفاضلة والدعوة إلى العمل الصالح كفيل بسعادة البشر فى دنياهم الحاضرة وحياتهم الثانية لو أنهم تخلقوا بما شرع، وهو دواء شافٍ لجميع الأمراض الخُلُقية، وحل المشاكل الاجتماعية.

هذا القرآن كان الصحابة يحفظون فى صدورهم ما ينزل من آياته. لقد حفظته العقول الواعية قبل أن يُجْمَعَ فى الصُّحُف، وكانت الآية إذا نزلت أو السورة تسابق الصحابة فى حفظها، وكل صحابى ينقلها إلى الآخر. كانوا يحفظون ذلك لأولادهم ولزوجاتهم؛ ليتخلق الكل بما أرشدت الآية إليه.

إنَّ النبى ﷺ إمام المسلمين وقدوتهم لم يكن فى صحبته للقرآن الكريم الذى أنزله الله تعالى عليه يسمع الجملة القرآنية، بل الكلمة يتنزل بها جبريل على قلبه وسَمْعِه، حتى يرددها على لسانه؛ ليزداد تذوقا لحلاوتها، وريًا من

(١) سورة المائدة ـ الآيتان: ٤٨ و ٤٩.

رحيقها، ولذا كان يجد النشوة الروحية والنعيم النفسى فى اتصاله بالقرآن الكريم، وكان يعطى كُلَّ حاسة من حواسه حظها من الاتصال بالقرآن، فإذا فاض قلب النبى ﷺ بنور القرآن وطعم لسانه منه كان لأُذُنه كذلك نصيب، فعن عبد الله بن مسعود ـ رضى الله تعالى عنه ـ قال: قال لى رسول الله ﷺ: «اقْرَأْ عَلَىَّ فَقُلْتُ: أَعَلَيْكَ أَقْرَأُ وَعَلَيْكَ أُنْزِلَ؟ قَالَ: إِنِّى أُحِبُّ أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِى، قَالَ ابن مسعود: فَافْتَتَحْتُ سورة النساء، فلما بلغت قول الله تعالى ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾[1]. رَأَيْتُ عَيْنَيْهِ تَذْرِفَانِ، ثم قال: حَسْبُكَ».

ولقد تعلم صحابة رسول الله ﷺ هذا من نبيهم، وكان القرآن الكريم حياتهم كلها، يَصِلُونَ ليلهم بنهارهم فى ترتيله وتدبُّر ما فى آياته وكلماته، وكانت الساعة التى يقضيها الواحد فى تلاوة القرآن أو الاستماع إليه خيرًا مما على الأرض من متاع وزينة وسلطان، وكان بعض الصحابة يحاول ختم القرآن مرة بالليل وأخرى بالنهار، لكن النبى ﷺ ـ وقد جاء بالدين اليسْر، والشريعة السمحة ـ وَجَّهَ الصحابة إلى التأنى فى التلاوة والتدبر فى آيات الله؛ ليصلوا إلى تلك الإشارة المضيئة التى تفتح عقولهم، وتضفى الأمل فى نفوسهم؛ ولذا كان توجيه النبى ﷺ لعبد الله بن عمرو بن العاص الذى قال: قلتُ يا رسولَ الله، فى كَمْ أَقْرأُ القُرْآنَ؟ قال اختمْهُ فى شهر. قُلْتُ: إنى أُطِيقُ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ قال: اختمه فى عَشْرٍ. قلتُ: إنى أُطِيقُ أفضل ذلك، قال: اختمه فى خمس، قلت: إنى أطيق أفضل من ذلك، فما رَخَّصَ لى». رواه أبو داود.

إن الله يسر القرآن وفهمه لمن اتصل به روحيًا وعقليًا وقلبيًا إذا حاول التدبر والفهم العميق لآياته. والناس على حظوظ مختلفة، كلٌّ على حسب ما عنده من استعداد عقلى وروحى للتلقى عنه والأخذ منه، فإن كل إنسان له نصيب ـ قَلَّ أم كَثُرَ ـ فمن ورد على القرآن بقلب سليم ونية صادقة أصابَ خيرًا وتزود

(١) سورة النساء ـ الآية ٤١.

بزاد طيب، وصدق اللّه العظيم إذ يقول: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾[1].

وتكرار هذه الآية أربع مرات فى سورة القمر يدل على ما فى القرآن من خير عظيم، ومع يُسر القرآن فهو لا يسمح بخيره إلا لمن كان له قلب حاضر يخشع لعظاته ويتدبر فى آياته؛ ليكون ممن وصفهم الحق بقوله: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾[2].

أما من يقرأ القرآن بلسان بينه وبين قلبه حجاب، أو يستمع إليه بِأُذُنٍ مضروب بينها وبين القلب سُور، فإنه لا يستفيد من القرآن، ولا ينتفع من تلاوته، ولا حياة لقلبه الغافل.

والقرآن الكريم وَحَّدَ الأُمَّة وسَمَا بها عندما اتصلت به، ونحن اليوم أحوج ما نكون إلى الرجوع إلى هذا القرآن الذى يهذب النفوس، ويرقق القلوب، ويوجه الأنظار إلى الحقائق المبثوثة فى الكون الفسيح، وهو ليس كتاب العلماء وحدهم، ولا كتاب الفقهاء وعلماء الدين فقط، وليس كتاب طبقة أو طائفة أو جنس ـ لا ـ إنما هو كتاب الله الخالق إلى الناس جميعًا بلا استثناء، فالناس جميعًا فيه شركاء، ومع هذا فالقرآن يقيم من ذاته حراسة قوية على آياته وكلماته، وصدق اللّه العظيم حيث قال: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾[3].

هذا، ولقد سمع أعرابى قارئًا يقرأ: وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِنَ اللهِ واللهُ غَفُورٌ رَحِيم. فقال الأعرابى: ما هَذَا؟ فقيل له:

---

(١) سورة القمر ـ الآية ١٧ و ٢٢ و ٣٢ و ٤٠.

(٢) سورة الزُّمَر ـ من الآية ٢٣.

(٣) سورة الحِجْر ـ الآية ٩.

قرآن. فقال ما هَذَا بِقُرآن. فَتَنَبَّهَ القارئُ عند ذلك وقَرَأَ الآيَةَ على وَجْهِهَا الصَّحِيحِ: ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[1].

فقال الأعرابى أَمَّا ذا فَنَعَمْ، هُوَ كَلَامُ الله، عَزَّ، فَحكَمَ فَقَطَعَ.

والأعرابى الآخر الذى سأل عن النبى ﷺ ودعوته التى يدعو إليها، وعن القرآن الذى يقرؤه على الناس، وكيف صح عنده أنه نبى؟ فقال: ما أمَر بشىءٍ فقال العقلُ لَيْتَهُ لم يأمر به. ولا نَهَى عن شىء فقال العقل ليته لم ينه عنه.

إن التاريخ لم يعرف كتابًا - أيًا كانت منزلته - لقى من الاهتمام والعناية مالقيه القرآن الكريم من عناية أتباعه واهتمامهم به والتفافهم حوله، يتدارسون آياته، ويستنبطون أحكامه، بل بلغت عناية المسلمين به أن عدوا حروفه حرفًا حرفًا، وكلماته كلمة كلمة، وآياته آية آية، وردوا حروفه إلى حروف المعجم، ثم حصروا خط كل حرف من تلك الحروف، ولم يكن هذا اهتمام المسلمين وحدهم، بل شارك كثير من غير المسلمين لغايات وأغراض مختلفة، بعضها لحساب الحق، وبعضها من أجل الباطل.

هذا هو القرآن، وتلك الحراسة الحافظة القائمة عليه من ذاته بما أودع الله تعالى فيه من أنوار الحق المشرقة، وليس فى وسع بشر أن يحيط بشأن القرآن الكريم وما احتواه، من أسرار؛ لأنه تنزيل من رب العالمين.

إنه كتاب الدهر كله؛ ماضيه، وحاضره، ومستقبله، فمشاكل المجتمع المتعددة وقضاياه المتنوعة يقف منها موقف الحَكَم العدل الذى يسوى بين الخلق، ويقضى بينهم بالحق، ويرفع معالم الهدى، ويثير دوافع الرحمة فى النفوس، ويمسك بزمامها بما احتوى من قوة الجذب والتأثير؛ لأنه سراجٌ وَهَّاجٌ تنجذب النفوس حوله، وتدور فى فلكه؛ لأنه يمسك بها مضيئة بالإيمان، مشرقة بالحق، آمنة بالخير، مطمئنة له، إن القرآن الكريم بيان للناس، وهدى وموعظة للمتقين.

---

(١) سورة المائدة - الآية ٣٨.

الحق على نوره، وعلى الغافلين عن لقاء الله أن يدركوا أن بَعْدَ الدار دارًا فيها الحساب على ما قدمه الإنسان من عمل، وبَعْدَ الحساب إمَّا جنة أو نار: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾(١).

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ۝٨٧ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾(٢).

قال عمرو بن العاص: كل آية فى القرآن درجة فى الجنة، ومصباح فى بيوتكم، ومَنْ قرأ القرآنَ أُدْرِجَت النُّبوة بين جنبيه إلاَّ أنه لا يُوحَى إليه. وقال أبو هريرة ـ رضى الله تعالى عنه :ـ إن البيتَ الذى يُتْلَى فيه القُرْآنُ يَتَّسِعُ بأهله، ويكثرخيره، وتحضره الملائكة، وتخرج منه الشياطين، وإن البيت الذى لا يُتْلَى فيه القرآن يضيق بأهله، ويقِل خيره، وتخرج منه الملائكة، وتسكنه الشياطين. ويقول الفضل ابن عياض: ينبغى لحامل القرآن ألاَّ يكون له إلى أحد حاجة، ولا إلى الخلفاء فمن دونهم، فينبغى أن تكون حوائجُ الخلق إليه. وحامِلُ القرآن حاملُ راية الإسلام، فلا ينبغى أن يلهو مع من يلهو، ولا يسهو مع من يسهو، ولا يلغو مع من يلغو، تعظمًا لحق القرآن.

وقال القاسم بن عبد الرحمـن: قلت لبعض النُسَّاك: ما ها هنا أحد نستأنس به؟ فمد يده إلى المصحف ووضعه على حجره وقال: هذا؛ لأن القرآن أنيسٌ للإنسان فى كل حال. وعن ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ: لقد عشنا دهرًا طويلا، وأحدنا يؤتى الإيمان قبل القرآن، فتنزل السورة على محمد ﷺ فيتعلم حلالها وحرامها، وآمرها وزاجرها، وما ينبغى أن يقف عنده منها، ثم لقد رأيت رجالا يؤتى أحدهم القرآن قبل الإيمان فيقرأ ما بين فاتحة الكتاب إلى خاتمته لا يدرى ما آمره، ولا زاجره، ولا ما ينبغى أن يقف عنده منه، ينثره نثر الدخل.

وجاء فى التوراة: يا عبدى، أَمَا تَسْتَحِي منى؟ يأتيك كتابٌ من بعض إخوانك وأنت فى الطريق تمشى فتعدل عن الطريق وتقعد لأجله وتقرؤه

(١) سورة الزلزلة ـ الآيتان: ٧ و ٨.

(٢) سورة ص ـ الآيتان: ٨٧ و ٨٨.

وتتدبره حرفًا حرفًا حتى لا يفوتك شيء منه، وهذا كتابى أنزلتُه إليكَ، انظر كم فصلت لك فيه من القول، وكم كررت عليك فيه لتتأمل طوله وعرضه، ثم أنت مُعْرِضٌ عنه، أفكنت أهون عليك من بعض إخوانك؟ يا عبدى، يقعدُ إليك بعض إخوانك فَتُقْبِلُ عليه بكل وجهك، وتصغى إلى حديثه بكل قلبك، فإن تكلمَ متكلمٌ أو شغلكَ شاغلٌ عن حديثه أوْمَأْتَ إليه أَنْ كُفَّ، وهـأَنَذَا مُقْبِلٌ عليك ومَحَدِّثُكَ وأنت مُعْرِضٌ بقلبك عنى، أفجعلتنى أهون عندك من بعض إخوانك؟[1].

إن القرآن الكريم لم ينزل ليُتْلَى للأموات عند تجمُّع المعزين، ولا عند المقابر بقصد تنزل الرحمات على الأموات، ولا ليُعَلَّق على الصُّدُور فى حلية ذهبية، أو يكتب فى صحيفة واحدة ويوضع فى براويز مزركشة، ثم يكون على الحائط بهجة للعين، أو للإعلان على أن صاحب المحل طيب أمين. وقد يكون هو غر مخادع خائن، أو أن يوضع فى علبة قطيفة، ثم يكون على المكتب أو فى السيارة، أو ما شَاكَلَ ذلك، لا، وألف مرة ـ لا ـ لم ينزل القرآن لهذا، وإنما نزل ليكون فى القلوب محفوظًا، ويترجم إلى عمل فى ميدان الحياة الاجتماعية.

إن التاجر الأمين الصادق الذى يوفى الكيل والميزان ولا يبخس الناس أشياءهم، والموظف الإيجابى فى عمله الذى يقوم بأداء العمل بأمانة دون تهرب من المسئولية، ولا يأخذ الرشوة، ولا يقبل الهدية إنْ كان فى قبولها تضييع لحق آخر، أو إهمال فى أداء واجب، والصانع الذى يُتقن صنعته، ويجود عمله، ويفى بوعده، ولا يتهرب من العمل، بأخذ إجازات مرضية بدون مرض فى جسمه، وإنما يتحايل ليقوم باللف والدوران فى الشارع أو الجلوس على المقاهى... إن التاجرَ الأمين، والموظف الإيجابى، والصانع الذى يضبط وقته ويراقب ربه، كل واحد منهم قرآنٌ يمشى فى المجتمع على قدميه، والحياة تسعد بهم، ويستتب فيها الأمن؛ ولذلك عندما سُئِلَت السيدة عائشة ـ رضى الله عنها ـ

(١) إحياء علوم الدين للإمام الغزالى.

والقرآن يسرد لنا فى سياقه الكثير من القصص؛ لأن فى القصة ترويحًا عن النفس، وتسرية لها، وترقيقًا لنوازعها، وهى لون محبب إلى النفس؛ لما فيها من متعة فكرية، وهى تنمى الأخلاق الفاضلة فى أعماق الإنسان، حيث تضىء ظلام القلب. والقرآن يعرض نماذج متعددة لمن تحسن بهم القدوة، وقامت فيهم العبرة، وما أجمل القصص القرآنى وهو يمتزج بالفطرة الإنسانية، فينطلق بها فى ميدانها الفسيح، وصدق الله العظيم: ﴿فَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾(١).

وإذا كانت التربية الحديثة الآن تعنى بتقديم بعض القصص على لسان الحيوانات والطيور، وذلك بهدف تنمية الفكر، والتأثير فى النفس، وإرشاد القلب والعقل معًا، وغرس نمط معين من الأخلاق فى نفسية الفرد عن طريق هذا المسلك، فإن القرآن الكريم كان أسبق ممن فكر فى هذا الأسلوب، ولنا فى قصة النملة مع سليمان، وكذلك الهدهد، ثم مملكة النحل التى أَوْحَى إليها رب الكون بأن تَتَّخذَ من الجبالِ بُيوتًا ومن الشجر كذلك، فى كل هذا ما يؤكد أسبقية القرآن فى هذا المجال.

لهذا يجدر بنا أن نعود إلى القرآن الكريم نجعله ربيعَ قلوبنا، وبهجة نفوسنا، نتلوه ونعلمه لأولادنا، ونُعَوِّدهم على التزود منه؛ لأن القرآن الكريم إذا لازمه الإنسان واتخذه سميرًا وأنيسًا، يتلوه آناء الليل وأطراف النهار، كان صافى النفس، رقيق الحس، صادق الرأى، وصدق اللّه العظيم إذْ يُقول: ﴿إِنَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾(٢).

وفى حديث رسول الله ﷺ: «مَثَلُ المؤْمنِ الذى يَقْرَأُ القُرْآنَ مَثَل الأتْرُجَّة، ريحُهَا طَيِّبٌ وطَعْمُهَا طَيِّبُ... والذى يَقْرَؤُه ويَتَعْتِعُ فيه(٣) وَهُوَ عَلَيْهِ شَاقٌ لَهُ أَجْرَان».

---

(١) سورة النحل ـ من الآية ٣٦.

(٢) سورة الإسراء ـ من الآية ٩.

(٣) تَعْتَعَ فى كلامه، أو قراءته: تَرَدَّد فى عِيٍّ، ووجد صعوبة فى القراءة.

وقد سُئل سفيان الثورى عن الرجل يغزو أَحَب إليكَ أو يقرأ القرآن؟ فقال: يقرأ القرآن ويُعلِّمُهُ؛ لأن الحديث يقول: «خَيْرُكُمْ مَنْ تعلَّم القُرْآنَ وَعَلَّمَهُ».

وفى حديث لأبى هريرة ـ رضى الله تعالى عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال له: «يا أَبَا هُرَيْرَةَ، عَلِّمَ النَّاسَ القُرْآنَ وَتَعَلَّمْهُ، فَإِنَّكَ إِنْ مُتَّ وَأَنْتَ كَذَلِكَ زَارَتِ الملائكةُ قَبْرَكَ كَمَا يُزَارُ الْبَيْتُ العَتِيق».

يقول القرطبى: قال العلماء «تَعَلُّمُ القُرْآنِ أَفْضَلُ الأَعْمَالِ؛ لأَنَّ فيه إعانةً على الدِّينِ، فهو كَتَلْقِينِ الكَافِرِ الشَّهَادَةَ ليسلم...»

وإذا كانت القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد، فقد سُئل رسول الله ﷺ عن الذى يجلوها، فأجاب: تِلاَوَةُ القُرْآن؛ فإن هذا يدفعنا أن نقبل على القرآن نقرأ فيه ونُعلمه لأولادنا، وأن نعمل على إعادة الكتاتيب؛ لأنها هى التى علمت الأجيال، وحافظت على القرآن الكريم. وإذا كانت الإنسانية اليوم اضطربت أحوالها، وأصبح هناك قلق نفسى، وكآبة فكرية تعم المجتمع، فسبب ذلك غياب القرآن عن مجتمعنا الإنسانى، فلو أن البشرية رجعت إليه لهدأت النفوس، وصدق اللّه العظيم إذ يقول: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[1].

وفى آية أخرى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾[2].

وكذلك قول الحق: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾[3].

فإلى المنصرفين عنه أن يعودوا إليه، إلى التائهين فى بيداء الحياة أن يبصروا

(١) سورة الأنعام ـ الآية ١٥٥.
(٢) سورة الأعراف ـ الآية ٩٦.
(٣) سورة المائدة ـ من الآية ٦٦.

عن خُلُق رسول الله ﷺ قالت: «كَانَ خُلُقُه القُرْآن» إن القرآن رحمة للأحياء قبل أن يكون رحمة للأموات، ومن لم يرحم نفسه قبل موته بالعمل فلن تنفعه تلك القراءة أبدًا، بل تكون القراءة سببًا فى زيادة عذابه إذا قُصِدَ بها الافتخار والزهو.

وصدق الله العظيم: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾[1].

يقول قتاده: «لم يُجالسْ أحَدٌ هذا القرآن إلا قام بزيادة أو نقصان» قال الله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾[2].

ويقول بعض العلماء: هذا القرآن رسائل أتتنا مِنْ قِبَلِ ربنا عز وجل بعهوده، فيجب علينا أن نتدبرها فى الصلوات، ونقف عليها فى الخلوات، وننفذها فى الطاعات. وقال بعض العلماء: إن من يقرأ القرآن ولم يتصف بأخلاق القرآن، كلما قرأ ناداه الله تعالى: مَالَكَ وَلِكَلَامِى وَأَنْتَ مُعْرِضٌ عَنِّى؟ دَعْ عَنْكَ كَلَامِى إِنْ لَمْ تَتُبْ إلىَّ.

فهلموا إلى القرآن يا رُوَّاد المساجِد، فإن القرآن أساس لكل خير، وهو ربيع المؤمن، كما أن الغيث ربيع الأرض، وصدق الله العظيم إذْ يقول: ﴿هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾[3].

وإذ يقول: ﴿هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[4].

ولنعلم أن رسول الله ﷺ حذرنا من أشياء تبعدنا عن القرآن، منها ما جاء فى الحديث الذى رواه ابن أبى الدنيا، عن رسول الله ﷺ قال: «إذَا عَظَّمَتْ

---

(١) سورة المدثر ـ الآية ٣٨.

(٢) سورة الإسراء ـ الآية ٨٢.

(٣) سورة آل عمران ـ الآية ١٣٨.

(٤) سورة الجاثية ـ الآية ٢٠.

أَمَّتِي الدِّينَارَ وَالدِّرْهَمَ نُزِعَ منها هَيْبَةُ الإِسْلاَمِ، وإِذَا تَرَكُوا الأَمْرَ بِالْمَعْرُوف وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ حُرِمُوا بَرَكَةَ الْوَحْيِ». قَالَ الفَضْلُ: يَعْنِي حُرِمُوا فَهْمَ القُرْآنِ.

قال الله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ﴾[1].

وقال سبحانه: ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾[2].

وإننا نهيب بالمسئولين عن دور الحضانة ومراحل التعليم المختلفة حتى الشهادات المتخصصة أن يجعلوا للقرآن الكريم الأولوية فى الدراسة، وأن يخصصوا له حصصًا معينة، حتى يتعود أبناؤنا وشباب الأمة ـ الذين هم رجال الغد، والذين سيتحملون مسئولية الأمة وقيادتها ـ على فهم الدين، وإتقان اللغة العربية، وتَعَوُّد لسانهم النطق الصحيح، ثم ليكونَ فى القلب نورًا، وعلى اللسان عفة، وللعقل صيانة، وللعمل الجاد البناء دافعًا.

إنَّ الوَازِعَ من الضمير ينمو فى ظل الحياة الروحية الطيبة، وفى معايشته للقرآن، وهذا ينسحب على الفتاة كذلك؛ لأن تعليم الدين ومُدَارَسَةَ القرآن هو لكل مسلم ومسلمة، وصدق الله العظيم: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[3].

* * *

(١) سورة البقرة ـ من الآية ٢٣١.

(٢) سورة ق ـ الآية ٨.

(٣) سورة النحل ـ الآية ٩٧.